فضائل الذكر والدعاء

الإمام ابن قيم الجوزية

مكتبة التراث الإسلامي
للطباعة والنشر والتوزيع
١٤ شارع صفية زغلول - قصر العيني - القاهرة

الإمام ابن قيم الجوزية

فضائل الذكر والدعاء

عنيت بنشره والتعليق

مكتبة التراث الإسلامي

للطباعة والنشر والتوزيع

١٤ شارع صفية زغلول - قصر العيني - ال

بسم الله الرحمن الرحيم

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . الله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يتولاكم فى الدنيا والآخرة . وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر . وإذا ابتلى صبر ، وإذا أذنب استغفر . فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد . وعلامة فلاحه فى دنياه وأخراه . ولا ينفك عبد عنها أبداً ، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث .

الأول : نعم من الله تعالى تترادف عليه . فقيدها : الشكر . وهو مبنى على ثلاثة أركان : الاعتراف بها باطناً ، والتحدث بها ظاهراً ، وتصريفها فى مرضاة وليها ومسديها ومعطيها . فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره فى شكرها .

الثانى : محن من الله تعالى يبتليه بها . ففرضه فيها الصبر والتسلى . والصبر : حبس النفس عن التسخط بالمقدور . وحبس اللسان عن الشكوى ، وحبس الجوارح عن المعصية . كاللطم . وشق الثياب . ونتف الشعر ونحوه .

فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة . فإذا قام به العبد كما ينبغى انقلبت المحنة فى حقه منحة . واستحالت البلية عطية . وصار المكروه محبوباً . فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه . وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته ، فإن لله تعالى على العبد عبودية فى الضراء ، كما له عبودية فى السراء . وله عبودية عليه فيما يكره ، كما له عبودية فيما يحب . وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون . والشأن فى إعطاء العبودية فى المكاره ، ففيه تفاوت مراتب العباد . وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى .

فالوضوء بالماء البارد فى شدة الحر عبودية . ومباشرة زوجته الحسناء التى يحبها عبودية . ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية . هذا والوضوء بالماء البارد فى شدة البرد عبودية ، وتركه المعصية التى اشتدت دواعى

نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية ، ونفقته فى الضراء عبودية ؛ ولكن فرق عظيم بين العبوديتين .

فمن كان عبداً لله فى الحالتين ، قائماً بحقه فى المكروه والمحبوب ، فذلك الذى تناوله قوله تعالى :

(أَلَيْس اللهُ بِكَافٍ عبْدَهُ)(١)

وفى القراءة الأخرى : *(عباده)* وهما سواء ، لأن المفرد مضاف فيعم عموم الجمع .

فالكفاية التامة مع العبودية التامة ، والناقصة مع الناقصة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه . وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان .

قال تعالى : (إِنَّ عِبادِى لَيْس لَكَ علَيْهِم سُلْطَانٌ)(٢) .

ولما علم عدوُّ الله إبليس أن الله تعالى لايسلم عباده إليه ، ولا يسلِّطه عليهم قال :

(فَبِعزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِين ، إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِين)(٣) .

وقال تعالى : (ولَقَدْ صدَّق علَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِن المُؤْمِنِين * وما كَانَ لَهُ علَيْهِمْ مِنْ سُلْطَان إِلَّا لِنَعْلَم منْ يُؤْمِنُ بالآخِرةِ مِمَّنْ هُو مِنْهَا فى شَكٍّ)(٤) .

فلم يجعل لعدوه سلطاناً على عباده المؤمنين ، فإنهم فى حرزه وكلاءته ، وحفظه وتحت كنفه ، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل الغافل ، فهذا لابد منه ، لأن العبد قد بلى بالغفلة والشهوة والغضب ، ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة ، ولو احترز العبد ما احترز ،

(١) الزمر : ٣٦ .
(٢) الحجر : ٤٢ .
(٣) ص : ٨٢–٨٣ .
(٤) سبأ : ٢٠ — ٢١ .

فلا بد له من غفلة . ولا بد له من شهوة ، ولا بد له من غضب . وقد كان آدم أبو البشر ﷺ من أحلم الخلق ، وأرجحهم عقلا ، وأثبتهم ، ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيما أوقعه فيه ، فما الظن بفراشة الحلم ، ومن عقله فى جنب عقل أبيه كتفلة فى بحر ؟ ولكن عدو الله لا يخلص إلى المؤمن إلا غيلة على غرة وغفلة ، فيوقعه ، ويظن أنه لايستقبل ربه عز وجل بعدها ، وأن تلك الوقعة قد اجتاحته وأهلكته ، وفضل الله تعالى ورحمته وعفوه ومغفرته وراء ذلك كله .

فإذا أراد الله بعبده خيراً فتح له من أبواب التوبة ، والندم ، والانكسار ، والذل ، والافتقار ، والاستعانة به ، وصدق اللجأ إليه ، ودوام التضرع ، والدعاء ، والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به سبب رحمته ، حتى يقول عدو الله : يا ليتنى تركته ولم أوقعه . وهذا معنى قول بعض السلف : إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة ، ويعمل الحسنة يدخل بها النار . قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفاً منه مشفقاً وجلا باكياً نادماً مستحياً من ربه تعالى ، ناكس الرأس بين يديه ، منكسر القلب له ، فيكون ذلك الذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التى بها سعادة العبد وفلاحه ، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة .

ويفعل الحسنة فلا يزال يمن بها على ربه ، ويتكبر بها ، ويرى نفسه ، ويعجب بها ، ويستطيل بها ، ويقول : فعلت ، وفعلت ، فيورثه من العجب والكبر ، والفخر والاستطالة ، ما يكون سبب هلاكه . فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ، ويذل به عنقه ، ويصغر به نفسه عنده ، وإن أراد به غير ذلك ، خلاه وعجبه وكبره ، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه . فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق : أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك ، والخذلان : أن يكلك الله تعالى إلى نفسك . فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والانكسار ، ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه ، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ، ورحمته ، وجوده ، وبره ، وغناه ، وحمده .

فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين . لا يمكنه أن يسير إلا بهما . فمتى فاته واحد منهما . فهو كالطير الذى فقد أحد جناحيه .

قال شيخ الإسلام(١) : العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة ، ومطالعة عيب النفس والعمل . وهذا معنى قوله ﷺ فى الحديث الصحيح من حديث شداد بن أوس رضى الله تعالى عنه : « سيد الاستغفار أن يقول العبد : اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . خلقتنى ، وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت . أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى . فاغفر لى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»(٢) فجمع فى قوله ﷺ : « أبوء لك بنعمتك على ، وأبوء بذنبى » مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل .

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولى النعم والإحسان . ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار ، والافتقار ، والتوبة فى كل وقت . وأن لا يرى نفسه إلا مفلساً ، وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس . فلا يرى لنفسه حالا ، ولا مقاماً ، ولاسبباً يتعلق به . ولا وسيلة منه يمن بها . بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف ، والإفلاس المحض . دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه . فانصدع . وشملته الكسرة من كل جهاته . وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل ، وكمال فاقته وفقره إليه ، وأن فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة ، وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى . وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك ، وخسر خسارة لاتجبر . إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته . ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية . ولا حجاب أغلظ من الدعوى.

(١) يعنى به شيخه أبا العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله .

(٢) رواه البخارى ١١/٨٣ و ٨٤ فى الدعوات باب أفضل الاستغفار . وباب ما يقول إذا أصبح . والترمذى رقم ٣٣٩٠ فى الدعوات باب رقم ١٥ . والنسائى ٨/٢٧٩ فى الاستعاذة باب الاستعاذة من شر ما صنع . وليس لشداد بن أوس رضى الله عنه فى صحيح البخارى إلا هذا الحديث الواحد .

والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها : حب كامل ، وذل تام . ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين ، وهما مشاهدة المنة التى تورث المحبة ، ومطالعة عيب النفس والعمل التى تورث الذل التام . وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة ، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته .

استقامة القلب

وإنما يستقيم له هذا باستقامة قلبه وجوارحه . فاستقامة القلب بشيئين :

أحدهما : أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب ، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره ، سبق حب الله تعالى حب ما سواه ، فرتب على ذلك مقتضاه ، وما أسهل هذا بالدعوى ، وما أصعبه بالفعل ، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .

وما أكثر ما يقدم العبد ما يحبه هو ويهواه . أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى ، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى فى قلبه جميع المحاب ، ولا كانت هى الملكة المؤمرة عليها ، وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن ينكد عليه محابه ، وينغصها عليه ، ولا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص، جزاء له على إيثاره هواه وهوى من يعظمه من الخلق ؛ أو يحبه على محبة الله تعالى . وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع ، أن من أحب شيئاً سواه عذب به ولا بد ، وأن من خاف غيره سلط عليه ، وأن من اشتغل بشىء غيره كان شؤماً عليه ، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه ، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد .

الأمر الثانى : الذى يستقيم به القلب : تعظيم الأمر والنهى ، وهو ناشىء عن تعظيم الآمر الناهى ، فإن الله تعالى ذم من لايعظم أمره ونهيه ، وقال سبحانه وتعالى :

(مالَكُمْ لَاتَرْجُونَ للهِ وقَارًا)(١) .

قالوا في تفسيرها : ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة . وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهى : هو أن لا يعارضا بترخص جاف ، ولا يعارضا بتشديد غال . ولا يحملا على علة توهن الانقياد .

ومعنى كلامه : أن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل : تعظيم أمره ونهيه ؛ وذلك لأن المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى كافة الناس . ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه ، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه . وتعظيم نهيه واجتنابه ، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهى ، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق . وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر . فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق ، وطلب المنزلة والجاه عندهم ، ويتقى المناهي خشية سقوطه من أعينهم ، وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي . فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهى ، ولا تعظيم الآمر الناهي . فعلامة التعظيم للأوامر : رعاية أوقاتها وحدودها . والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها ، والحرص على تحينها في أوقاتها ، والمسارعة إليها عند وجوبها . والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها ، كمن يحزن على فوت الجماعة ، ويعلم أنه لو تقبلت منه صلاته منفرداً ، فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفاً . ولو أن رجلا يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة (قيمتها) سبعة وعشرون ديناراً . لأكل يديه ندماً وأسفاً ، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف . وألف ألف ، وما شاء الله تعالى ، فإذا فوت العبد عليه هذا الربح قطعاً ، كثير من العلماء يقول : لا صلاة له وهو بارد القلب ، فارغ من هذه المصيبة ، غير مرتاح لها . فهذا من عدم تعظيم أمر الله تعالى في قلبه ، وكذلك إذا

---

(١) نوح : ١٣ .

فاته أول الوقت الذى هو رضوان الله تعالى . أو فاته الصف الأول الذى يصلى الله وملائكته على ميامنه : ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه : ولكانت قرعة . وكذلك فوت الجمع الكثير الذى تضاعف الصلاة بكثرته وقلته ، كلما كثر الجمع كان أحب إلى الله عز وجل . وكلما بعدت الخطا كانت خطوة تحط خطيئة ، وأخرى ترفع درجة . وكذلك فوت الخشوع فى الصلاة . وحضور القلب فيها بين يدى الرب تبارك وتعالى الذى هو روحها ولبها . فصلاة بلا خشوع ولا حضور ، كبدن ميت لا روح فيه . أفلا يستحى العبد أن يهدى إلى مخلوق مثله عبداً ميتاً ، أو جارية ميتة ؟ فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها . من ملك ، أو أمير . أو غيره ، فهكذا سواء الصلاة الخالية عن الخشوع والحضور . وجمع الهمة على الله تعالى فيها بمنزلة هذا العبد — أو الأمة — الميت الذى يريد إهداءه إلى بعض الملوك . ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه ، وإن أسقطت الفرض فى أحكام الدنيا . ولا يثيبه عليها . فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها كما فى « السنن » و « مسند الإمام أحمد » وغيره عن النبى ﷺ أنه قال : « إن العبد ليصلى الصلاة وما كتب له إلا نصفها ، إلا ثلثها ، إلا ربعها ، إلا خمسها حتى بلغ عشرها »(١) .

وينبغى أن يعلم أن سائر الأعمال تجرى هذا المجرى ، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما فى القلوب من الإيمان ، والإخلاص ، والمحبة وتوابعها ، وهذا العمل الكامل هو الذى يكفر الذنوب تكفيراً كاملا ، والناقص بحسبه ، وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة ، وهما : **تفاضل الأعمال بتفاضل ما فى القلوب من حقائق الإيمان** ، وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه . وبهذا يزول الإشكال الذى يورده من نقص حظه من هذا الباب على الحديث الذى فيه : « إن صوم يوم

---

(١) رواه أبو داود رقم (٧٩٦) فى الصلاة باب ما جاء فى نقصان الصلاة . وأحمد فى « المسند » ٤/٣١٩ و ٣٢١ من حديث عمار بن ياسر : وإسناده حسن ، ولفظه : « إن العبد ليصلى الصلاة ما يكتب له منها إلا عشرها : تسعها ، ثمنها . سبعها ، سدسها ، خمسها ، ربعها ، ثلثها ، نصفها » .

عرفة يكفر سنتين . ويوم عاشوراء يكفر سنة »(١) قالوا : فإذا كان دأبه دائماً أنه يصوم يوم عرفة . فصامه وصام يوم عاشوراء ، فكيف يقع تكفير ثلاث سنين كل سنة ؟ وأجاب بعضهم عن هذا ، بأن ما فضل عن التكفير ينال به الدرجات . ويا لله العجب ، فليت العبد إذا أتى بهذه المكفرات كلها أن تكفر عنه سيئاته باجتماع بعضها إلى بعض ،والتكفير بهذه مشروط بشروط . وموقوف على انتفاء موانع فى العمل وخارجه .

فإن علم العبد أنه جاء بالشروط كلها . وانتفت عنه الموانع كلها ، فحينئذ يقع التكفير ، وأما عمل شملته الغفلة أو لأكثره ، وفقد الإخلاص الذى هو روحه ، ولم يقدره حق قدره ، فأى شىء يكفر هذا ؟

فإن وثق العبد من عمله بأنه وفاه حقه الذى ينبغى له ظاهراً وباطناً ، ولم يعرض له مانع يمنع تكفيره ، ولا مبطل يحبطه من عجب أو رؤية نفسه فيه ، أو يمن به ، أو يطلب من العباد تعظيمه به ، أو يستشرف بقلبه لمن يعظمه عليه ، أو يعادى من لا يعظمه عليه ، ويرى أنه قد بخسه حقه ، وأنه قد استهان بحرمته ، فهذا أى شىء يكفر !

ومحبطات الأعمال ومفسداتها أكثر من أن تحصر . وليس الشأن فى العمل ، إنما الشأن فى حفظ العمل مما يفسده ويحبطه .

فالرياء وإن دق محبط للعمل ، وهو أبواب كثيرة لا تحصر . وكون العمل غير مقيد باتباع السنة أيضاً موجب لكونه باطلا ، والمن به على الله تعالى بقلبه مفسد له ، وكذلك المن بالصدقة والمعروف ، والبر والإحسان والصلة ، مفسد لها ، كما قال سبحانه وتعالى :

(يا أَيُّهَا الَّذِين آمنُوا لَاتُبْطِلُوا صدقَاتِكُم بالمنِّ والأَذَى)(٢) .

وأكثر الناس ما عندهم خبر من السيئات التى تحبط الحسنات ، وقد قال تعالى :

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٥/٢٩٧ . ومسلم رقم (١١٦٢ » فى الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم عاشوراء . وأبو داود رقم (٢٤٢٥) فى الصوم باب فى صوم الدهر .

(٢) البقرة : ٢٦٤ .

(يا أَيُّهَا الَّذِين آمنُوا لَاتَرْفَعُوا أَصْواتَكُم فَوْقَ صوْتِ النَّبِيِّ ولَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجهْرِ بعْضِكُم لِبعْضٍ أَنْ تَحْبطَ أَعْمالُكُم وأَنْتُمْ لَاتَشْعُرُونَ)(١) .

فحذر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض ، وليس هذا بردة . بل معصية تحبط العمل وصاحبها لا يشعر بها . فما الظن بمن قدم على قول الرسول ﷺ وهديه وطريقه قول غيره وهديه وطريقه ؟ أليس هذا قد حبط عمله وهو لا يشعر ؟ ومن هذا قوله ﷺ : « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله »(٢) .

ومن هذا قول عائشة رضي الله تعالى عنها وعن أبيها لزيد بن أرقم رضي الله عنه لما باع بالعينة : إنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ، إلا أن يتوب .

وليس التبايع بالعينة ردة . وإنما غايته أنه معصية . فمعرفة ما يفسد الأعمال في حال وقوعها ويبطلها ويحبطها بعد وقوعها من أهم ما ينبغي أن يفتش عليه العبد ، ويحرص على عمله ويحذره . وقد جاء في أثر معروف : إن العبد ليعمل العمل سراً لا يطلع عليه أحد إلا الله تعالى ، فيتحدث به ، فينتقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية ، ثم يصير في ذلك الديوان على حسب العلانية ، فإن تحدث به للسمعة وطلب الجاه والمنزلة عند غير الله تعالى أبطله كما لو فعله لذلك .

فإن قيل : فإذا تاب هذا هل يعود إليه ثواب العمل ؟ قيل : إن كان قد عمله لغير الله تعالى ، وأوقعه بهذه النية ، فإنه لا ينقلب صالحاً بالتوبة ، بل حسب التوبة أن تمحو عنه عقابه ، فيصير لا له ولا عليه . وأما إن عمله لله تعالى خالصاً . ثم عرض له عجب ورياء ، أو تحدث به ، ثم تاب من ذلك وندم ، فهذا قد يعود له ثواب عمله ولا يحبط . وقد يقال : إنه لا يعود إليه . بل يستأنف العمل . والمسألة مبنية على أصل ، وهو

---

(١) الحجرات : ٢ .

(٢) رواه البخاري ٢/٢٦ في مواقيت الصلاة باب من ترك العصر . والنسائي ١/٢٣٦ في الصلاة باب من ترك صلاة العصر .

أن الردة . هل تحبط العمل بمجردها ، أولا يحبطه إلا الموت عليها ؟ فيه للعلماء قولان مشهوران ، وهما روايتان عن الإمام أحمد رضى الله عنه . فإن قلنا تحبط العمل بنفسها ، فمتى أسلم استأنف العمل وبطل ما كان قد عمل قبل الإسلام ، وإن قلنا ، لا يحبط العمل إلا إذا مات مرتداً ، فمتى عادإلى الإسلام عاد إليه ثواب عمله . وهكذا العبد إذا فعل حسنة،ثم فعل سيئة تحبطها ثم تاب من تلك السيئة ، هل يعود إليه ثواب تلك الحسنة المتقدمة ! يخرج على هذا الأصل .

ولم يزل فى نفسى من هذه المسألة ، ولم آزل حريصاً على الصواب فيها . وما رأيت أحداً شفى فيها ، والذى يظهر — والله تعالى أعلم وبه المستعان ولا قوة إلا به — أن الحسنات والسيئات تتدافع وتتقابل ، ويكون الحكم فيها للغالب ، وهو يقهر المغلوب ، ويكون الحكم له ، حتى كأن المغلوب لم يكن ، فإذا غلبت على العبد الحسنات رفعت حسناته الكثيرة سيئاته ، ومتى تاب من السيئة ترتب على توبته منها حسنات كثيرة قد تربى وتزيد على الحسنة التى حبطت بالسيئة ، فإذا عزمت التوبة ، وصحت ، ونشأت من صميم القلب ، أحرقت ما مرت عليه من السيئات ، حتى كأنها لم تكن ، فإن التائب من الذنب لا ذنب له . وقد سأل حكيم بن حزام رضى الله عنه النبى ﷺ عن عتاقة وصلة وبر فعله فى الشرك : هل يثاب عليه ؟ فقال النبى ﷺ : « أسلمت على ما أسلفت من خير »(١) فهذا يقتضى أن الإسلام أعاد عليه ثواب تلك الحسنات التى كانت باطلة بالشرك ، فلما تاب من الشرك عاد إليه ثواب حسناته المتقدمة . فهكذا إذا تاب العبد توبة نصوحا ، صادقة خالصة ، أحرقت ماكان قبلها من السيئات ، وأعادت عليه ثواب حسناته . يوضح هذا أن السيئات والذنوب هى أمراض قلبية ، كما أن الحمى والأوجاع أمراض بدنية ، والمريض إذا عوفى من مرضه عافية تامة ، عادت إليه قوته وأفضل منها حتى كأنه لم يضعف قط .

---

(١) رواه البخارى ٣/٢٣٩ فى الزكاة باب من تصدق فى الشرك ثم أسلم ، ومسلم رقم ١٢٣ فى الإيمان باب حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده .

فالقوة المتقدمة بمنزلة الحسنات . والمرض بمنزلة الذنوب . والصحة والعافية بمنزلة التوبة . وكما أن من المرضى من لا تعود إليه صحته أبداً لضعف عافيته ، ومنهم من تعود صحته كما كانت لتقاوم الأسباب وتدافعها ، ويعود البدن إلى كماله الأول ، ومنهم من يعود أصح مما كان وأقوى وأنشط لقوة أسباب العافية وقهرها وغلبتها لأسباب الضعف والمرض . حتى ربما كان مرض هذا سبباً لعافيته ، كما قال الشاعر :

لَعلَّ عتْبكَ محْمُودٌ عواقِبُـهُ   ورُبَّما صحَّتِ الأَجْسامُ بالعِلَلِ

فهكذا العبد بعد التوبة على هذه المنازل الثلاث . والله الموفق ، لا إله غيره ، ولا رب سواه .

علامات تعظيم المناهى

وأما علامات تعظيم المناهى : فالحرص على التباعد من مظنها وأسبابها وما يدعو إليها ، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها ، كمن يهرب من الأماكن التى فيها الصور التى تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها ، وأن يدع مالا بأس به حذراً مما به بأس . وأن يجانب الفضول من المباحثات خشية الوقوع فى المكروه ، ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو إليها ، ويتهاون بها ، ولا يبالى ما ركب منها ، فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه ، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته .

ومن علامات تعظيم النهى : أن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه ، وأن يجد فى قلبه حزناً وكسرة إذا عصى الله تعالى فى أرضه ، ولم يضطلع بإقامة حدوده وأوامره ، ولم يستطع هو أن يغير ذلك .

ومن علامات تعظيم الأمر والنهى : أن لايسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافياً غير مستقيم على المنهج الوسط .

مثال ذلك : أن السنة وردت بالإبراد بالظهر فى شدة الحر ، فالترخص الجافى أن يبرد إلى فوات الوقت ، أو مقاربة خروجه ، فيكون مترخصاً جافياً .

وحكمة هذه الرخصة أن الصلاة فى شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور ، ويفعل العبادة بتكره وضجر ، فمن حكمة الشارع ﷺ : أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر ، فيصلى العبد بقلب حاضر ، ويحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى :

ومن هذا نهيه ﷺ أن يصلى بحضرة الطعام ، أو عند مدافعة البول والغائط ، لتعلق قلبه من ذلك بما يشوش عليه مقصود الصلاة ، ولا يحصل المراد منها ، فمن فقه الرجل فى عبادته أن يقبل على شغله فيعمله ، ثم يفرغ قلبه للصلاة ، فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالى . ونصب وجهه له ، وأقبل بكليته عليه ، فركعتان من هذه الصلاة يغفر للمصلى بهما ما تقدم من ذنبه .

والمقصود أن لا يترخص ترخيصاً جافياً .

ومن ذلك أنه رخص للمسافر فى الجمع بين الصلاتين عند العذر وتعذر فعل كل صلاة فى وقتها لمواصلة السير ، وتعذر النزول أو تعسره عليه ، فإذا قام فى المنزل اليومين والثلاثة ، أو أقام اليوم ، فجمعه بين الصلاتين لاموجب له لتمكنه من فعل كل صلاة فى وقتها من غير مشقة . فالجمع ليس سنة راتبة كما يعتقد أكثر المسافرين أن سنة السفر الجمع ، سواء وجد عذر أم لم يوجد ، بل الجمع رخصة ، والقصر سنة راتبة ، فسنة المسافر قصر الرباعية ، سواء كان له عذر أو لم يكن . وأما جمعه بين الصلاتين ، فحاجة ورخصة . فهذا لون . وهذا لون .

ومن هذا : أن الشبع فى الأكل رخصة غير محرمة . فلا ينبغى أن يجمو العبد فيها حتى يصل به الشبع إلى حد التخمة والامتلاء : فيتطلب ما يصرف به الطعام . فيكون همه بطنه قبل الأكل وبعده ، بل ينبغى للعبد أن يجوع ويشبع . ويدع الطعام وهو يشتهيه . وميزان ذلك قول النبى ﷺ : « ثلث لطعامه . وثلث لشرابه . وثلث لنفسه »(١) . ولم يجعل الثلاثة الأثلاث كلها للطعام وحده .

---

(١) رواه الترمذى رقم ٢٣٨١ فى الزهد . باب ما جاء فى كراهية كثرة الأكل وابن ماجه رقم ٣٣٤٩ فى الأطعمة . باب الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع ، وصححه الترمذى ، وهو كما قال . رواه ابن حبان والحاكم ٤ / ١٢١ وصححه ووافقه الذهبى .

وأما تعريض الأمر والنهى للتشديد الغالى ، فهو كمن يتوسوس فى الوضوء متغالياً فيه حتى يفوت الوقت . أو يردد تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة ، أو يكاد تفوته الركعة . أو يتشدد فى الورع الغالى حتى لايأكل شيئاً من طعام عامة المسلمين خشية دخول الشبهات عليه .

ولقد دخل هذا الورع الفاسد على بعض العباد الذين نقص حظهم من العلم ، حتى امتنع أن يأكل شيئاً من بلاد الإسلام ، وكان يتقوت بما يحمل إليه من بلاد النصارى . ويبعث بالقصد لتحصيل ذلك . فأوقعه الجهل المفرط . والغلو الزائد فى إساءة الظن بالمسلمين . وحسن الظن بالنصارى ، نعوذ بالله من الخذلان .

فحقيقة التعظيم للأمر والنهى أن لا يعارضا بترخص جاف ، ولا يعرضا لتشديد غال ، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عز وجل بسالكه . وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان : إما تقصير وتفريط ، وإما إفراط وغلو ، فلا يبالى بما ظفر من العبد من الخطيئتين ، فإنه يأتى إلى قلب العبد فيشامه ، فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة . فثبطه وأقعده ، وضربه بالكسل والتوانى والفتور . وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك . حتى ربما ترك العبد المأمور جملة .

وإن وجد عنده حذراً وجداً . وتشميراً ونهضة . وأيس أن يأخذه من هذا الباب ، أمره بالاجتهاد الزائد ، وسول له أن هذا لا يكفيك . وهمتك فوق هذا . وينبغى لك أن تزيد على العاملين ، وأن لا ترقد إذا رقدوا ، ولا تفطر إذا أفطروا ، وأن لا تفتر إذا فتروا . وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات . فاغسل أنت سبعاً . وإذا توضأ للصلاة ، فاغتسل أنت لها ، ونحو ذلك من الإفراط والتعدى ، فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدى الصراط المستقيم ، كما يحمل الأول على التقصير دونه وأن لايقربه ، ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم : هذا بأن لايقربه ولا يدنو منه ، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه .

وقد فتن بهذا أكثر الخلق ، ولا ينجى من ذلك إلا علم راسخ ، وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط . والله المستعان .

ومن علامات تعظيم الأمر والنهى : أن لايحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل ، بل يسلم لأمر الله تعالى وحكمه ، ممتثلا ما أمر به ، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر ، فإن ظهرت له حكمة الشرع فى أمره ونهيه ، حمله ذلك على مزيد الانقياد والبذل والتسليم ، ولا يحمله ذلك على الانسلاخ منه وتركه ، كما حمل ذلك كثيراً من زنادقة الفقراء والمنتسبين إلى التصوف ، فإن الله عز وجل شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره ، واستعمالا للقلب والجوارح واللسان فى العبودية . وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التى هى المقصود بخلق العبد . فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية ؛ فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الآدمى ، واختاره من بين سائر البرية . وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والإخلاص ، والمحبة والحياء ، والتعظيم والمراقبة ، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله ، وهو النظر إلى وجهه ، والفوز برضوانه ، ومجاورته فى جنته ، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة ، وابتلاه بعدوه إبليس لايفتر عنه ، فهو يدخل عليه من الأبواب التى هى من نفسه وطبعه ، فتميل نفسه معه ، لأنه يدخل عليها بما تحب ، فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد: ثلاثة مسلطون آمرون ، فيبعثون الجوارح فى قضاء وطرهم ، والجوارح آلة منقادة ، فلا يمكنها إلا الانبعاث ، فهذا شأن هذه الثلاثة ، وشأن الجوارح . فلا تزال الجوارح فى طاعتهم كيف أمروا وأين يمموا . هذا مقتضى حال العبد ، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر ، وأمده بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذى يريد هلاكه ، فأرسل إليه رسوله ، وأنزل عليه كتابه ، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان ، فإذا أمره الشيطان بأمر ، أمره الملك بأمر ربه ، وبين له ما فى طاعة العدو من الهلاك ، فهذا يلم به مرة ، وهذا مرة ، والمنصور من نصره الله عز وجل ، والمحفوظ من حفظه الله تعالى .

وجعل له مقابل نفسه الأمارة نفساً مطمئنة ، إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء ، نهته عنه النفس المطمئنة ، وإذا نهته الأمارة عن الخير ، أمرته به النفس المطمئنة . فهو يطيع هذه مرة ، وهذه مرة ، وهو الغالب عليه منهما ، وربما انقهرت إحداهما بالكلية قهراً لاتقوم معه أبداً ، وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نوراً وبصيرة ، وعقلا يرده عن الذهاب مع الهوى ، فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور : الحذر الحذر . فإن المهالك والمتالف بين يديك ، وأنت صيد الحرامية ، وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل .

فهو يطيع الناصح مرة ، فيبين له رشده ونصحه ، ويمشى خلف دليل الهوى مرة ، فيقطع عليه الطريق ، ويؤخذ ماله ، وتسلب ثيابه ، فيقول : ترى من أين أتيت ؟ والعجب أنه يعلم من أين أتى ، ويعرف الطريق التى قطعت عليه وأخذ فيها . ويأبى إلا سلوكها ، لأن دليلها قد تمكن منه ، وتحكم فيه ، وقوى عليه ، ولو أضعفه بالمخالفة له ، وزجره إذا دعاه . ومحاربته إذا أراد أخذه ، لم يتمكن منه ، ولكن هو مكنه من نفسه ، وهو أعطاه يده . فهو بمنزلة الرجل يضع يده فى يد عدوه ، فيباشره ثم يسومه سوء العذاب ، فهو يستغيث فلا يغاث ، فهكذا يستأسر للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة ، ثم يطلب الخلاص ، فيعجز عنه ، فلما أن بلى العبد بما بلى به ، أعين بالعساكر والعدد والحصون ، وقيل : قاتل عدوك وجاهده ، فهذه الجنود خذ منها ما شئت ، وهذه الحصون تحصن بأى حصن شئت منها ، ورابط إلى الموت . فالأمر قريب ، ومدة المرابطة يسيرة جداً ، فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله ، فنقلوك إلى داره . واسترحت من هذا الجهاد ، وفرق بينك وبين عدوك ، وأطلقت فى دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت ، وسجن عدوك فى أصعب الحبوس وأنت تراه .

فالسجن الذى كان يريد أن يودعك فيه قد أدخله وأغلقت عليه أبوابه ، وأيس من الروح والفرج ، وأنت فيما اشتهت نفسك ، وقرت عينك ، جزءاً على صبرك فى تلك المدة اليسيرة ، ولزومك الثغر للرباط ،

وماكانت إلا ساعة ثم انقضت ، وكأن الشدة لم تكن . فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه ، فليتدبر قوله عز وجل :

(كَأَنَّهُمْ يوْم يرونَ مايُوعدُونَ لَمْ يلْبثُوا إلَّا ساعةً مِنْ نَهارٍ)(١)؛

وقوله عز وجل :

(كَأَنَّهُمْ يوْم يرونَها لَمْ يلْبثُوا إلَّا عشيَّةً أَوْ ضُحاها)(٢) .

وقوله عز وجل :

(قَال كَمْ لَبِثْتُمْ فى الأَرْضِ عدد سِنِين ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يوْمًا أَوْ بعْضَ يوْمٍ فَاسْأَلِ العادِّين . قال : إنْ لَبِثْتُمْ إلَّا قَلِيلاً لَوْأَنَّكُمْ كُنْتُم تَعْلَمُونَ)(٣).

وقوله عز وجل :

(يوْم يُنْفَخُ فى الصُّورِ ونَحْشُرُ المُجْرِمِين يوْمئِذٍ زُرْقًا * يتَخَافَتُونَ بيْنَهُمْ إن لَبِثْتُمْ إلَّا عشْرًا * نَحْنُ أَعْلَمُ بما يقُولون ، إذْ يقُولُ أَمْثَلهُمْ طريقَةً إنْ لبثْتُمْ إلَّا يوْمًا)(٤) .

وخطب النبي ﷺ أصحابه يوماً ، فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال ، وذلك عند الغروب قال : « إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه »(٥) فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث ، وليعلم أى شيء حصل له من هذا الوقت الذى قد بقى من الدنيا بأسرها ، ليعلم أنه فى غرور وأضغاث أحلام ، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوى شيئاً ، ولوطلب الله تعالى والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ هنيئاً موفوراً وأكمل منه ، كما فى بعض الآثار :

---

(١) الأحقاف : ٣٥ .

(٢) النازعات : ٤٦ .

(٣) المؤمنون : ١١٢ .

(٤) طه : ١٠٢ / ١٠٤ .

(٥) رواه أحمد فى المسند ١٣٣/٢ من حديث عبد الله بن عمرو ١٩/٣ والترمذى رقم ٢١٩٢ فى الفتن باب ما أخبر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه بما هو كائن إلى يوم القيامة من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

ابن آدم ، بع الدنيا بالآخرة تربحهما جميعاً . ولا تبع الآخرة بالدنيا تخسرهما جميعاً .

وقال بعض السلف : ابن آدم . أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج . فإن بدأت بنصيبك من الدنيا أضعت نصيبك من الآخرة . وكنت من نصيب الدنيا على خطر . وإن بدأت بنصيبك من الآخرة فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظاماً .

وكان عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه يقول فى خطبته : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً يجمعكم الله عز وجل فيه للحكم فيكم . والفصل بينكم . فخاب وشقى عبد أخرجه الله عز وجل من رحمته التى وسعت كل شىء . وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف الله تعالى واتقى . وباع قليلا بكثير ، وفانياً بباق . وشقاوة بسعادة . ألا ترون أنكم فى أصلاب الهالكين ، وسيخلفه بعدكم الباقون ؟ ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً رائحاً إلى الله قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب .

والمقصود أن الله عز وجل قد أمد العبد فى هذه المدة اليسيرة بالجنود . والعدد ، والإمداد ، وبين له بماذا يحرز نفسه من عدوه ، وبماذا يفتك نفسه إذا أسر . وقد روى الإمام أحمد رحمه الله ، والترمذى : من حديث الحارث الأشعرى . عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى بن زكريا ﷺ بخمس كلمات : أن يعمل بها . ويأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، وأنه كاد أن يبطىء بها ، فقال له عيسى عليه السلام : إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها ، وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بها ، فإما أن تأمرهم ، وإما أن آمرهم ، فقال يحيى : أخشى إن سبقتنى بها أن يخسف بى وأعذب ، فجمع يحيى الناس فى بيت المقدس ، فامتلأ المسجد ، وقعدوا على الشرف . فقال : إن الله تبارك وتعالى أمرنى

بخمس كلمات أن أعملهن ، وآمركم أن تعملوا بهن . أولهن : أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً ، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، فقال له : هذه دارى ، وهذا عملى ، فاعمل وأد إلى ، فكان يعمل ويؤدى إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت ، وأمركم بالصيام ، فإن مثل ذلك كمثل رجل فى عصابة ، معه صرة فيها مسك ، كلهم يعجب أو يعجبه ريحه ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو ، فأوثقوا يديه إلى عنقه ، وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفتدى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم ، وأمركم أن تذكروا الله تعالى ، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو فى أثره سراعاً ، حتى إذا أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى . قال النبى ﷺ : « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : السمع ، والطاعة ، والجهاد ، والهجرة ، والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية ، فإنه من جثا جهنم » فقال رجل : يا رسول الله ، وإن صلى وصام؟ (قال : وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم) فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (١) .

فقد ذكر ﷺ فى هذا الحديث العظيم الشأن — الذى ينبغى لكل مسلم حفظه وتعقله — ما ينجى من الشيطان ، وما يحصل للعبد به الفوز والنجاة فى دنياه وأخراه ، فذكر مثل الموحد والمشرك : فالموحد كمن عمل لسيده فى داره ، وأدى لسيده ما استعمله فيه ، والمشرك كمن استعمله

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٤/٢٠٢ والترمذى رقم ٢٨٦٧ و ٢٨٦٨ فى « الأمثال » باب ما جاء فى مثل الصيام والصلاة والصدقة ، وهو حديث صحيح ، صححه ابن حبان والحاكم وغيرهما .

سيده في داره ، فكان يعمل ويؤدي خراجه وعمله إلى غير سيده ، فهكذا المشرك يعمل لغير الله تعالى في دار الله تعالى ، ويتقرب إلى عدو الله تعالى بنعم الله تعالى .

ومعلوم أن العبد من بني آدم لو كان مملوكه كذلك لكان أمقت المماليك عنده . وكان أشد شيء غضباً عليه ، وطرداً له وإبعاداً ، وهو مخلوق مثله ، كلاهما في نعمة غيرها ، فكيف برب العالمين الذي ما بالعبد من نعمة فمنه وحده لا شريك له ، ولا يأتي بالحسنات إلا هو ، ولا يصرف السيئات إلا هو ، وهو وحده المنفرد بخلق عبده ، ورحمته ، وتدبيره ، ورزقه ، ومعافاته ، وقضاء حوائجه ، فكيف يليق به مع هذا أن يعدل به غيره في الحب والخوف ، والرجاء ، والحلف ، والنذر ، والمعاملة ، فيحب غيره كما يحبه أو أكثر ، ويخاف غيره ويرجوه كما يخافه أو أكثر ؟ وشواهد أحوالهم — بل وأقوالهم وأعمالهم — ناطقة بأنهم يحبون أنداده من الأحياء والأموات ، ويخافونهم ، ويرجونهم ، ويعاملونهم ، ويطلبون رضاهم ، ويهربون من سخطهم ، أعظم مما يحبون الله تعالى ، ويخافون ، ويرجون ، ويهربون من من سخطه ، وهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله عز وجل ، قال الله سبحانه وتعالى :

(إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (١) .

والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة : ديوان لا يغفر الله منه شيئاً ، وهو الشرك به ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئاً ، وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً ، فإن الله تعالى يستوفيه كله .

وديوان لا يعبأ الله به شيئاً ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل ، فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً ، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة ، ونحو ذلك ، بخلاف ديوان الشرك ، فإنه لا يمحى إلا بالتوحيد ، وديوان المظالم لا يمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها .

(١) النساء : ٤٨ .

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل ، حرم الجنة على أهله ، فلا تدخل الجنة نفس مشركة ، وإنما يدخلها أهل التوحيد ، فإن التوحيد مفتاح بابها ، فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها ، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به ، وأسنان هذا المفتاح هي : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، والجهاد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، فأي عبد اتخذ في هذه الدار مفتاحاً صالحاً من التوحيد ، وركب فيه أسناناً من الأوامر جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لا يفتح إلا به ، فلم يعقه عن الفتح عائق ، اللهم إلا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والاستغفار ، فإنه يحبس عن الجنة حتى يتطهر منها ، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده ، فلا بد من دخول النار ليخرج خبثه فيها ، ويتطهر من درنه ووسخه ، ثم تخرج منها ، فيدخل الجنة ، فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب . قال سبحانه وتعالى :

(الَّذين تَتَوفَّاهُم المَلائِكَةُ طَيِّبِين يقُولُونَ سلَامٌ علَيْكُمْ ادْخُلُوا الجنَّةَ) (١) .

وقال تعالى :

(وسِيق الَّذِين اتَّقَوْا ربَّهُمْ إِلَى الجنَّةِ زُمرًا ، حتَّى إِذَا جاءُوها وفُتِحتْ أَبْوابُها وقَال لهم خَزَنَتُهَا سـلَامٌ علَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوها خَالِدِين) (٢) .

فعقب دخولها على الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول ، أي : بسبب طيبكم قيل لكم : ادخلوها .

وأما النار ، فإنها دار الخبث في الأقوال والأعمال ، والمآكل والمشارب ، ودار الخبيثين ، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض ، فيركمه كما

---

(١) النحل : ٣٢ .
(٢) الزمر : ٧٣ .

يركم الشيء لتراكب بعضه على بعض ، ثم يجعله فى جهنم مع أهله . فليس فيها إلا خبيث .

ولما كان الناس على ثلاث طبقات : طيب لايشينه خبث ، وخبيث لا طيب فيه ، وآخرون فيهم خبث وطيب ، كانت دورهم ثلاثة : دار الطيب المحض ، ودار الخبيث المحض ، وهاتان الداران لاتفنيان ، ودار لمن معه خبث وطيب ، وهى الدار التى تفنى ، وهى دار العصاة ، فإنه لا يبقى فى جهنم من عصاة الموحدين أحد ، فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار ، فأدخلوا الجنة . ولا يبقى إلا دار الطيب المحض . ودار الخبث المحض .

وقوله فى الحديث : « وأمركم بالصلاة ، فإذا صليتم ، فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده فى صلاته ما لم يلتفت » الالتفات المنهى عنه فى الصلاة قسمان . أحدهما : التفات القلب عن الله عز وجل إلى غير الله تعالى . والثانى : التفات البصر . وكلاهما منهى عنه . ولا يزال الله مقبلا على عبده ما دام العبد مقبلا على صلاته ، فإذا التفت بقلبه أو بصره ، أعرض الله تعالى عنه . وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل فى صلاته فقال : « اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » (١) .

وفى اثر : يقول الله تعالى : « إلى خير منى ، إلى خير منى » ؟ ومثل من يلتفت فى صلاته ببصره أو بقلبه ، مثل رجل قد استدعاه السلطان ، فأوقفه بين يديه ، وأقبل يناديه ويخاطبه ، وهو فى خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينا وشمالا ، وقد انصرف قلبه عن السلطان ، فلا يفهم ما يخاطبه به ، لأن قلبه ليس حاضراً معه ، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان ، أفليس أقل المراتب فى حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصلى لا يستوى والحاضر القلب المقبل على الله تعالى فى

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٦ / ٧ و ١٠٦ ، والبخارى ٢/١٩٤ فى « الأذان » باب الألتفات فى الصلاة . وأبو داود رقم ٩١٠ فى الصلاة باب الألتفات فى الصلاة . والترمذى رقم ٥٩٠ فى الصلاة باب ما جاء فى الألتفات فى الصلاة ، والنسائى ٣/٨ فى السهو باب التشديد فى الالتفات فى الصلاة من حديث عائشة رضى الله عنها .

صلاته الذى قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه ، فامتلأ قلبه من هيبته ، وذلت عنقه له ، واستحيي من ربه تعالى أن يقبل على غيره ، أو يلتفت عنه . وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية : إن الرجلين ليكونان فى الصلاة الواحدة ، وإن ما بينهما فى الفضل كما بين السماء والأرض ، وذلك أن أحدهما مقبل بقلبه على الله عز وجل ، والآخر ساه غافل . فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله ، وبينه وبينه حجاب ، لم يكن إقبالا ولا تقريباً ، فما الظن بالخالق عز وجل ؟

وإذا أقبل على الخالق عز وجل ، وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس ، والنفس مشغوفة بها ، ملأى منها ، فكيف يكون ذلك إقبالا وقد ألهته الوساوس والأفكار ، وذهبت به كل مذهب ؟ والعبد إذا قام فى الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام فى أعظم مقام ، وأقربه وأغيظه للشيطان ، وأشده عليه ، فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه ، بل لايزال به يعده ويمنيه وينسيه ، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه بشأن الصلاة ، فيتهاون بها فيتركها . فإن عجز عن ذلك منه ، وعصاه العبد ، وقام فى ذلك المقام ، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ، ويحول بينه وبين قلبه . فيذكره فى الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها ، حتى ربما كان قد نسى الشيء والحاجة ، وأيس منها ، فيذكره إياها فى الصلاة ليشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله عز وجل ، فيقوم فيها بلا قلب ، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما يناله المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه فى صلاته ، فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه ، وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة ، فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها ، وأكمل خشوعها ، ووقف بين يدى الله تعالى بقلبه وقالبه . فهذا إذا انصرف منها وجد خفة من نفسه ، وأحس بأثقال قد وضعت عنه . فوجد نشاطاً وراحة وروحاً ، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها ، لأنها قرة عينيه ونعيم روحه ، وجنة قلبه . ومستراحه فى الدنيا ، فلا يزال كأنه فى سجن وضيق حتى يدخل فيها ، فيستريح بها لا منها ، فالمحبون يقولون : نصلى فنستريح بصلاتنا ، كما قال إمامهم

وقدوتهم ونبيهم : « يا بلال أرحنا بالصلاة »(١) ولم يقل : أرحنا منها ، وقال ﷺ : « جعلت قرة عينى فى الصلاة »(٢) فمن جعلت قرة عينه فى الصلاة ، كيف تقر عينه ﷺ بدونها ، وكيف يطيق الصبر عنها ؟

فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذى قرة عينه فى الصلاة ، هى التى تصعد ولها نور وبرهان ، حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل ، فتقول : « حفظك الله تعالى كما حفظتنى » ، وأما صلاة المفرط المضيع لحقوقها وحدودها وخشوعها ، فإنها تلف كما يلف الثوب الخلق ، ويضرب بها وجه صاحبها وتقول : « ضيعك الله كما ضيعتنى » .

وقد روى فى حديث مرفوع ، رواه بكر بن بشر ، عن سعيد بن سنان ، عن أبى الزاهرية ، عن أبى شجرة ، عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما يرفعه أنه قال : « ما من مؤمن يتم الوضوء إلى أماكنه ، ثم يقوم إلى الصلاة فى وقتها فيؤديها لله عز وجل لم ينقص من وقتها ، وركوعها وسجودها ، ومعالمها شيئاً ، إلا رفعت له إلى الله عز وجل بيضاء مسفرة يستضىء بنورها ما بين الخافقين حتى ينتهى بها إلى الرحمن عز وجل ، ومن قام إلى الصلاة فلم يكمل وضوءها ، وأخرها عن وقتها ، واسترق ركوعها وسجودها ومعالمها ، رفعت عنه سوداء مظلمة ، ثم لاتجاوز شعر رأسه تقول : ضيعك الله كما ضيعتنى ، ضيعك الله كما ضيعتنى »(٣) .

فالصلاة المقبولة ، والعمل المقبول أن يصلى العبد صلاة تليق بربه

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٥/٣٦٤ و ٣٧١ ، وأبو داود رقم ٤٩٨٥ و ٤٩٨٦ فى الأدب ، باب صلاة العتمة ، وإسناده حسن .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » ٣/١٢٨ و ١٩٩ و ٢٨٥ ، والنسائى ٧/٦١ فى عشرة النساء باب حب النساء ، وإسناده حسن .

(٣) إسناده ضعيف جداً ، سعيد بن سنان وهو أبو مهدى الحمصى . متروك . ورماه الدارقطنى وغيره بالوضع ، كما قال الحافظ فى « التقريب » . وفى الباب عن أنس . رواه الطبرانى فى « الأوسط » ذكره الهيثمى فى « المجمع » ١ / ٣٠٢ وقال : وفيه عباد بن كثير ، وقد أجمعوا على ضعفه ، وقال الحافظ فى « التقريب » : متروك ، وقال أحمد : روى أحاديث كذب ، وعن عبادة بن الصامت عند الطيالسى رقم (٥٨٥) والطبرانى فى « الكبير » والبزار ، وفى سنده الأحوص بن حكيم ، وهو مختلف فيه ، وراويه عن عبادة . وهو خالد ابن معدان لم يسمع منه ، فالحديث ضعيف .

عز وجل ، فإذا كانت صلاة تصلح لربه تبارك وتعالى وتليق به ، كانت مقبولة .

والمقبول من العمل قسمان :

أحدهما : أن يصلى العبد ويعمل سائر الطاعات وقلبه متعلق بالله عز وجل ، ذاكر لله عز وجل على الدوام ، فأعمال هذا العبد تعرض على الله عز وجل حتى تقف قبالته ، فنيظر الله عز وجل إليها ، فإذا نظر إليها رآها خالصة لوجهه مرضية ، وقد صدرت عن قلب سليم مخلص محب لله عز وجل متقرب إليه ، أحبها ورضيها وقبلها .

والقسم الثانى : أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة . وينوى بها الطاعة والتقرب إلى الله ، فأركانه مشغولة بالطاعة . وقلبه لاه عن ذكر الله ، وكذلك سائر أعماله ، فإذا رفعت أعمال هذا إلى الله عز وجل ، لم تقف تجاهه ، ولا يقع نظره عليها ، ولكن توضع حيث توضع دواوين الأعمال ، حتى تعرض عليه يوم القيامة فتميز ، فيثيبه على ما كان له منها ، ويرد عليه ما لم يرد وجهه به منها .

فهذا قبوله لهذا العمل : إثابته عليه بمخلوق من مخلوقاته من القصور والأكل والشرب والحور العين . وإثابة الأول رضى العمل لنفسه ، ورضاه عن معاملة عامله ، وتقريبه منه ، وإعلاء درجته ومنزلته ، فهذا يعطيه بغير حساب ، فهذا لون ، والأول لون .

والناس فى الصلاة على مراتب خمسة :

أحدها : مرتبة الظالم لنفسه المفرط ، وهو الذى انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها .

الثانى : من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه فى الوسوسة ، فذهب مع الوساوس والأفكار .

الثالث : من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه فى دفع الوساوس والأفكار ، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته ، فهو فى صلاة وجهاد .

الرابع : من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها . واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها ، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها ، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها .

الخامس : من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك . ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل ، ناظراً بقلبه إليه ، مراقبا له . ممتلئاً من محبته وعظمته ، كأنه يراه ويشاهده . وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات . وارتفعت حجبها بينه وبين ربه . فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض ، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به .

فالقسم الأول معاقب ، والثاني محاسب ، والثالث مكفر عنه ، والرابع مثاب ، والخامس مقرب من ربه . لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة . فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا ، قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة . وقرت عينه أيضاً به في الدنيا . ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين . ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

وقد روى أن العبد إذا قام يصلى قال الله عز وجل : ارفعوا الحجب ، فإذا التفت قال : أرخوها ، وقد فسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره . فإذا التفت إلى غيره ، أرخى الحجاب بينه وبين العبد ، فدخل الشيطان . وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها في صورة المرآة وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب . وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فر إلى الله تعالى وأحضر قلبه فر الشيطان . فإن التفت حضر الشيطان ، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة .

أصناف القلـوب

وإنما يقوى العبد على حضوره فى الصلاة واشتغاله فيها بربه عز وجل إذا قهر شهوته وهواه ، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة ، وأسره الهوى ، ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه ، كيف يخلص من الوساوس والأفكار؟ !

والقلوب ثلاثة :

قلب خال من الإيمان وجميع الخير : فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه ، لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً ، وتحكم فيه بما يريد ، وتمكن منه غاية التمكن .

القلب الثانى : قلب قد استنار بنور الإيمان ، وأوقد فيه مصباحه ، لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية ، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع ، فالحرب دول وسجال .

وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة ، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر ، ومنهم من أوقات غلبة عدوه له أكثر ، ومنهم من هو تارة وتارة .

القلب الثالث : قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان ، وانقشعت عنه حجب الشهوات ، وأقلعت عنه تلك الظلمات ، فلنوره فى صدره إشراق ، ولذلك الإشراق إيقاد لودنا منه الوسواس احترق به ، فهو كالسماء التى حرست بالنجوم ، فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق ، وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن ، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء ، والسماء متعبد الملائكة ، ومستقر الوحى ، وفيها أنوار الطاعات ، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان ، وفيه أنوارها ، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو : فلا ينال منه شيئاً إلا خطفة ، وقد مثل ذلك بمثال حسن .

وهو ثلاثة بيوت :

بيت للملك فيه كنوزه وذخائره وجواهره .

وبيت للعبد فيه كنوز العبد وذخائره وجواهره ، وليس جواهر الملك وذخائره .

وبيت خال صفر لاشىء فيه ، فجاء اللص يسرق من أحد البيوت ، فمن أيها يسرق ؟

فإن قلت : من البيت الخالى ، كان محالا ، لأن البيت الخالى ليس فيه شىء يسرق ، ولهذا قيل لابن عباس رضى الله عنهما : إن اليهود تزعم أنها لاتوسوس فى صلاتها ، فقال : وما يصنع الشيطان بالقلب الخراب ؟

وإن قلت: يسرق من بيت الملك ، كان ذلك كالمستحيل الممتنع . فإن عليه من الحرس واليزك ما لا يستطيع اللص الدنو منه ، كيف وحارسه الملك بنفسه ، وكيف يستطيع اللص الدنو منه وحوله من الحرس والجند ما حوله ؟ فلم يبق للص إلا البيت الثالث ، فهو الذى يشن عليه الغارات .

فليتأمل اللبيب هذا المثال حق التأمل ، ولينزله على القلوب ، فإنها على منواله .

فقلب خلا من الخير كله ، وهو قلب الكافر والمنافق ، فذلك بيت الشيطان ، قد أحرزه لنفسه واستوطنه واتخذه سكناً ومستقراً ، فأى شىء يسرق منه وفيه خزائنه وذخائره وشكوكه وخيالاته ووساوسه ؟ .

وقلب قد امتلأ من جلال الله عز وجل وعظمته ومحبته ومراقبته والحياء منه ، فأى شيطان يجترىء على هذا القلب ؟ وإن أراد سرقة شىء منه ، فماذا يسرق ، وغايته أن يظفر فى الأحايين منه بخطفة ونهب يحصل له على غرة من العبد وغفلة لا بد له منها ، إذ هو بشر ، وأحكام البشرية جارية عليه من الغفلة والسهو والذهول وغلبة الطبع .

وقد ذكر عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى أنه قال : فى بعض الكتب الإلهية : « لست أسكن البيوت ، ولا تسعنى ، وأى شىء يسعنى والسموات حشو كرسى ؟ ولكن أنا فى قلب الوادع التارك لكل شىء سواى » وهذا معنى الأثر الآخر « ما وسعتنى سمواتى ولا أرضى ، ووسعنى

قلب عبدى المؤمن »(١) . وقلب فيه توحيد الله تعالى ومعرفته ومحبته والإيمان به والتصديق بوعده ، وفيه شهوات النفس وأخلاقها ودواعى الهوى والطبع .

وقلب بين هذين الداعيين . فمرة يميل بقلبه داعى الإيمان والمعرفة والمحبة لله تعالى وإرادته وحده ، ومرة يميل بقلبه داعى الشيطان والهوى والطباع ، فهذا القلب للشيطان فيه مطمع ، وله منازلات ووقائع ، ويعطى الله النصر من يشاء .

(وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ) (٢) .

وهذا لايتمكن الشيطان منه إلا بما عنده من سلاحه. فيدخل إليه الشيطان . فيجد سلاحه عنده فيأخذه ويقاتله به ، فإن أسلحته هى الشهوات والشبهات والخيالات والأمانى الكاذبة، وهى فى القلب . فيدخل الشيطان فيجدها عتيدة فيأخذها ويصول بها على القلب ، فإن كان عند العبد عدة عتيدة من الإيمان تقاوم تلك العدة وتزيد عليها ، انتصف من الشيطان ، وإلا فالدولة لعدوه عليه ، ولا حول ولاقوة إلا بالله . فإذا أذن العبد لعدوه وفتح له باب بيته وأدخله عليه ومكنه من السلاح يقاتله به ، فهو الملوم .

فَنَفْسَكَ لُمْ ولا تَلُمِ المطايا   ومُتْ كمدًا فليس لك اعتذارُ

عدنا إلى شرح حديث الحارث الذى فيه ذكر ما يحرز العبد من عدوه :

قوله ﷺ : « وآمركم بالصيام فإن مثل ذلك مثل رجل فى عصابة معه صرة فيها مسك . فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ، وان ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك » .

---

(١) قال السخاوى فى « المقاصد الحسنة » ذكره الغزالى فى « الأحياء بلفظ : قال الله : لم يسعنى ، وذكره بلفظ : ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع ، قال السخاوى : وقال العراقى: لم أر له أصلا ، وكذا قال ابن تيمية : هو مذكور فى الإسرائيليات ، وليس له إسناد معروف عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ونقل عن ابن الزركشى أن بعض أهل العلم قال : إنه حديث باطل . وهو من وضع الملاحدة ، ونقله عنه العجلونى فى «كشف الخفاء » وأقره عليه .

(٢) آل عمران ١٢٦ .

إنما مثل ﷺ ذلك بصاحب الصرة التي فيها المسك ، لأنها مستورة عن العيون ، مخبوءة تحت ثيابه ، كعادة حامل المسك ، وهكذا الصائم صومه مستور عن مشاهدة الخلق ، لا تدركه حواسهم ، والصائم هو الذى صامت جوارحه عن الآثام ، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور ، وبطنه عن الطعام والشراب ، وفرجه عن الرفث ، فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه ، وإن فعل لم يفعل ما يفسد صومه ، فيخرج كلامه نافعاً صالحاً ، وكذلك أعماله ، فهى بمنزلة الرائحة التي يشمها من جالس حامل المسك ، كذلك من جالس الصائم انتفع بمجالسته ، وأمن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم .

هذا هو الصوم المشروع ، لا مجرد إمساك عن الطعام والشراب .

فى الحديث الصحيح : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل ، فليس لله حاجة ، أن يدع طعامه وشرابه »(١) وفى الحديث « رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش » (٢) .

فالصوم هو صوم الجوارح عن الآثام ، وصوم البطن عن الشراب والطعام ، فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده ، فهكذا الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته ، فتصيره بمنزلة من لم يصم .

وقد اختلف فى وجود هذه الرائحة من الصائم ، هل هى فى الدنيا ، أو فى الآخـــرة ؟ على قولين . ووقع بين الشيخـــين الفاضلين أبى محمـــد (عز الدين) بن عبد السلام وأبى عمر بن الصلاح فى ذلك تنازع ، فمال أبو محمد إلى تلك فى الآخرة خاصة ، وصنف فيه مصنفاً . ومال الشيخ أبوعمرو إلى أن ذلك فى الدنيا والآخرة . وصنف فيه مصنفاً رد فيه على أبى محمد . وسلك أبوعمرو فى ذلك مسلك أبى حاتم بن حبان ، فإنه فى

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٤٥٢/٢ و ٥٠٥ والبخارى ٣٩٤/١٠ فى الأدب . باب قول الله تعالى (واجتنبوا قول الزور) وابن ماجه رقم ١٦٨٩ فى الصيام ، باب ما جاء فى الغيبة والرفث للصائم .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » ٣٧٣/٢ وذكره المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ونسبه لابن خزيمة والحاكم والبيهقى . وهو حديث صحيح .

« صحيحه » بوب عليه كذلك . فقال : « ذكر البيان بأن خلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك » ثم ساق حديث الأعمش عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «كل عمل ابن آدم له إلا الصيام ، والصيام لى ، وأنا أجزى به ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »(١) ثم قال : « ذكر البيان بأن خلوف فم الصائم يكون أطيب عند الله من ريح المسك يوم القيامة » ثم ساق حديثاً من حديث ابن جريج عن عطاء عن أبي صالح الزيات أنه سمع أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ : « قال الله تبارك وتعالى : كل عمل ابن آدم له ، إلا الصيام ، فإنه لى ، وأنا أجزى به ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك ، للصائم فرحتان : إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى الله تعالى فرح بصومه »(٢) .

قال أبو حاتم : شعار المؤمنين يوم القيامة التحجيل بوضوئهم فى الدنيا فرقاً بينهم وبين سائر الأمم ، وشعارهم فى القيامة بصومهم ، طيب خلوف أفواههم أطيب من ريح المسك ، ليعرفوا من بين ذلك الجمع بذلك العمل ، جعلنا الله تعالى منهم .

ثم قال : « ذكر البيان بأن خلوف فم الصائم قد يكون أيضاً أطيب من ريح المسك فى الدنيا » ثم ساق من حديث شعبة عن سليمان عن ذكوان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : «كل حسنة يعملها ابن آدم بعشر حسنات إلى سبعمائة ضعف ، يقول الله عز وجل : إلا الصوم ، فهو لى ، وأنا أجزى به . يدع الطعام من أجلى ، والشراب من أجلى . وأنا أجزى به ،

(١) رواه البخارى ١٠/٣١٠ فى اللباس . باب ما يذكر فى المسك . من طريق معمر عن الزهرى عن ابن المسيب عن أبي هريرة . ورواه بمعناه من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة البخارى ١٣/٣٨٩ فى التوحيد ، باب قوله تعالى « يريدون أن يبدلوا كلام الله » ومسلم رقم ١١٥١ فى الصيام ، باب فضل الصيام .

(٢) رواه البخارى ٤/١٠١ فى الصوم ، باب هل يقول : إنى صائم إذا شتم . ومسلم رقم ١١٥١ فى الصيام ، باب فضل الصيام .

وللصائم فرحتان : فرحة حين يفطر ، وفرحة حين يلقى ربه عز وجل ، ولخلوف فم الصائم حين يخلف من الطعام أطيب عند الله من ريح المسك »(١)

واحتج الشيخ أبو محمد بالحديث الذى فيه تقييد الطيب بيوم القيامة . قلت : ويشهد لقوله الحديث المتفق عليه « والذى نفسى بيده ما من مكلوم يكلم فى سبيل الله — والله أعلم بمن يكلم فى سبيله — إلا جاء يوم القيامة وكلمه يدمى ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك »(٢) .

فأخبر ﷺ عن رائحة كلم المكلوم فى سبيل الله عز وجل بأنها كريح المسك يوم القيامة ، وهو نظير إخباره عن خلوف فم الصائم ، فإن الحس يدل على أن هذا دم فى الدنيا ، وهذا خلوف له ، ولكن يجعل الله تعالى رائحة هذا وهذا مسكاً يوم القيامة .

واحتج الشيخ أبوعمرو بما ذكره أبو حاتم فى « صحيحه » من تقييد ذلك بوقت إخلافه ، وذلك يدل على أنه فى الدنيا ، فلما قيد المبتدأ وهو خلوف فم الصائم بالظرف ، وهو قوله : حين يخلف ، كان الخبر عنه ، وهو قوله : أطيب عند الله ، خبراً عنه فى حال تقييده ، فإن المبتدأ إذا تقيد بوصف أو حال أو ظرف ، كان الخبر عنه حال كونه مقيداً ، فدل على أن طيبه عند الله تعالى ثابت حال إخلافه .

قال : وروى الحسن بن سفيان فى « مسنده » عن جابر أن النبى ﷺ قال : « أعطيت أمتى فى شهر رمضان خمساً . . » فذكر الحديث ، وقال فيه : « وأما الثانية فإنهم يمسون وريح أفواههم أطيب عند الله من ريح المسك » . ثم ذكر كلام الشراح فى معنى طيبه وتأويلهم إياه بالثناء على الصائم والرضى بفعله ، على عادة كثير منهم بالتأويل من غير ضرورة ، حتى كأنه قد بورك فيه ، فهو موكل به ، وأى ضرورة تدعو إلى تأويل كونه أطيب عند الله من ريح المسك بالثناء على فاعله والرضى بفعله ، وإخراج اللفظ عن حقيقته ؟ وكثير من هؤلاء ينشىء للفظ معنى

---

(١) وهو حديث صحيح ، وهو بنحوه عند مسلم رقم ١١٥١ .

(٢) رواه البخارى ٦ /١٥ فى الجهاد ، باب من يجرح فى سبيل الله ، ومسلم رقم ١٨٧٦ فى الإمارة ، باب فضل الجهاد والخروج فى سبيل الله .

ثم يدعى إرادة ذلك المعنى بلفظ النص من غير نظر منه إلى استعمال ذلك اللفظ فى المعنى الذى عينه أو احتمال اللغه له .

ومعلوم أن هذا يتضمن الشهادة على الله تعالى ورسوله ﷺ بأن مراده من كلامه كيت وكيت ، فإن لم يكن ذلك معلوماً بوضع اللفظ لذلك المعنى ، أو عرف الشارع ﷺ وعادته المطردة أو الغالبة باستعمال ذلك اللفظ فى هذا المعنى أو تفسيره له به ، وإلا كانت شهادة باطلة ، وأدنى أحوالها أن تكون شهادة بلا علم .

ومن المعلوم أن أطيب ما عند الناس من الرائحة رائحة المسك . فمثل النبى ﷺ هذا الخلوف عند الله تعالى بطيب رائحة المسك عندنا وأعظم ، ونسبة استطابة ذلك إليه سبحانه وتعالى كنسبة سائر صفاته وأفعاله إليه ، فإنها استطابة لا تماثل استطابة المخلوقين ، كما أن رضاه وغضبه وفرحه وكراهته وحبه وبغضه لا تماثل ما للمخلوق من ذلك ، كما أن ذاته سبحانه وتعالى لا تشبه ذوات خلقه ، وصفاته لاتشبه صفاتهم ، وأفعاله لا تشبه أفعالهم ، وهو سبحانه وتعالى يستطيب الكلم الطيب . فيصعد إليه ، والعمل الصالح ، فيرفعه ، وليست هذه الاستطابة كاستطابتنا .

ثم إن تأويله لا يرفع الإشكال ، إذ ما استشكله هؤلاء من الاستطابة يلزم مثله فى الرضى فإن قال : رضى ليس كرضى المخلوقين ، فقولوا : استطابة ليست كاستطابة المخلوقين ، وعلى هذا جميع ما يجىء من هذا الباب .

ثم قال : وأما ذكر يوم القيامة فى الحديث . فلأنه يوم الجزاء ، وفيه يظهر رجحان الخلوف فى الميزان على المسك المستعمل لدفع الرائحة الكريهة طلباً لرضى الله تعالى ، حيث يؤمر باجتنابها . واجتلاب الرائحة الطيبة ، كما فى المساجد والصلوات وغيرها من العبادات ، فخص يوم القيامة بالذكر فى بعض الروايات ، كما خص فى قوله تعالى

(إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)(١) .

---

(١) العاديات : ١١ .

وأطلق فى باقيها نظراً إلى أن أصل أفضليته ثابت فى الدارين :

قلت : من العجب رده على أبى محمد بما لا ينكره أبو محمد ولا غيره ، فإن الذى فسر به الاستطابة المذكورة فى الدنيا بثناء الله تعالى على الصائمين ورضاه بفعلهم ، أمر لا ينكره مسلم ، فإن الله تعالى قد أثنى عليهم فى كتابه ، وفيما بلغه عنه رسوله ﷺ ورضى بفعله ، فإن كانت هذه هى الاستطابة ، فبرى الشيخ أبو محمد (لا) ينكرها . والذى ذكره الشيخ أبو محمد أن هذه الرائحة إنما يظهر طيبها على طيب المسك فى اليوم الذى يظهر فيه طيب دم الشهيد ، ويكون كرائحة المسك ، ولا ريب أن ذلك يوم القيامة ، فإن الصائم فى ذلك اليوم يجىء ورائحة فمه أطيب من رائحة المسك ، كما يجىء المكلوم فى سبيل الله عز وجل ورائحة دمه كذلك ، لا سيما والجهاد أفضل من الصيام ، فإن كان طيب رائحته إنما يظهر يوم القيامة ، فكذلك الصائم .

وأما حديث جابر : « فانهم يمسون وخلوف أفواههم أطيب من ريح المسك » ، فهذه جملة حالية ، لا خبرية ، فإن خبر إمسائه لا يقترن بالواو ، لأنه خبر مبتدأ . فلا يجوز اقترانه بالواو ، وإذا كانت الجملة حالية ، فلأبى محمد أن يقول : هى حال مقدرة والحال المقدرة يجوز تأخيرها عن زمن الفعل العامل فيها ؛ ولهذا لو صرح بيوم القيامة فى مثل هذا ، فقال : « يمسون وخلوف أفواههم أطيب من ريح المسك يوم القيامة » لم يكن التركيب فاسداً ، كأنه قال : « يمسون » وهذا لهم يوم القيامة .

وأما قوله : « لخلوف فم الصائم حين يخلف » فهذا الظرف تحقيق للمبتدأ ، أو تأكيد له ، وبيان إرادة الحقيقة المفهومة منه ، لا مجازه ولا استعارته ، وهذا كما تقول : جهاد المؤمن حين يجاهد ، وصلاته حين يصلى ، يجزيه الله تعالى بها يوم القيامة ويرفع بها درجته يوم القيامة ، وهذا قريب من قوله ﷺ : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

---

(١) رواه البخارى ٨٦/٥ فى المظالم ، باب النهى بغير إذن صاحبه . ومسلم رقم ٥٧ فى الإيمان باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصى .

وليس المراد تقييد نفى الإيمان المطلق عنه حالة مباشرة تلك الأفعال فقط ، بحيث إذا كملت مباشرته وانقطع فعله عاد إليه الإيمان ، بل هذا النفى مستمر إلى حين التوبة ، وإلا فما دام مصراً وإن لم يباشر الفعل ، فالنفى لاحق به ، ولا يزول عنه اسم الذم والأحكام المترتبة على المباشرة ، إلا بالتوبة النصوح ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وفصل النزاع فى المسألة أن يقال : حيث أخبر النبى ﷺ بأن ذلك الطيب يكون يوم القيامة ، فلأنه الوقت الذى يظهر فيه ثواب الأعمال وموجباتها من الخير والشر فيظهر للخلق طيب ذلك الخلوف على المسك ، كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم فى سبيله كرائحة المسك ، وكما تظهر فيه السرائر وتبدو على الوجوه وتصير علانية ويظهر فيه قبح رائحة الكفار وسواد وجوههم ، وحيث أخبر بأن ذلك حين يخلف وحين يمسون ، فلأنه وقت ظهور أثر العبادة ، ويكون حينئذ طيبها على ريح المسك عند الله تعالى وعند ملائكته ، وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد ، فرب مكروه عند الناس ، محبوب عند الله تعالى ، وبالعكس ، فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم ، والله تعالى يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته ، فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا ، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد ، وصار علانية ، وهكذا سائر آثار الأعمال من الخير والشر .

وإنما يكمل ظهورها ويصير علانية فى الآخرة . وقد يقوى العمل ويتزايد ، حتى يستلزم ظهور بعض أثره على العبد فى الدنيا فى الخير والشر . كما هو مشاهد بالبصر والبصيرة .

قال ابن عباس : إن للحسنة ضياء فى الوجه ، ونوراً فى القلب ، وقوة فى البدن ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً فى الوجه ، وظلمة فى القلب ، ووهناً فى البدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق .

وقال عثمان بن عفان : ما عمل رجل عملا إلا ألبسه الله تعالى رداءه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وهذا أمر معلوم يشترك فيه وفى العلم به أصحاب البصائر وغيرهم ، حتى إن الرجل الطيب البر لتشم منه رائحة طيبة وإن لم يمس طيباً ، فيظهر طيب رائحة روحه على بدنه وثيابه ، والفاجر بالعكس ، والمزكوم الذى أصابه الهواء لا يشم لا هذا ، ولا هذا ، بل زكامه يحمله على الإنكار ، فهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

الصـــدقة

« وآمركم بالصدقة ، فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا أفتدى منكم بالقليل والكثير ، ففدى نفسه منهم » .

هذا أيضاً من الكلام الذى برهانه وجوده ، ودليله وقوعه ، فإن للصدقة تأثيراً عجيباً فى دفع أنواع البلاء ، ولو كانت من فاجر أو ظالم ، بل من كافر ، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء ، وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم ، وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه .

وقد روى الترمذى فى « جامعه » من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ قال : « إن الصدقة تطفىء غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء » (١) ، وكما أنها تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى ، فهى تطفىء الذنوب والخطايا كما يطفىء الماء النار .

وفى الترمذى عن معاذ بن جبل قال : كنت مع رسول الله ﷺ فى سفر ، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير ، فقال : « ألا أدلك على أبواب

---

(١) رواه الترمذى رقم ٦٦٤ فى الزكاة ، باب نقل الصدقة ، وابن حبان رقم ٨١٦ « موارد » ، وفى سنده عبد الله بن عيسى الخزاز ، وهو ضعيف ، وفيه أيضاً عنعنة الحسن البصرى وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه وفى بعض النسخ : غريب ، وقد ثبت الحديث من طرق بلفظ : « إن صدقة السر تطفىء غضب الرب ، وإن صنائع المعروف تق مصارع السوء » .

الخير ؟ الصوم جنة ، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار ، وصلاة الرجل فى جوف الليل شعار الصالحين » ثم تلا :

(تَتَجافى جنُوبهم عَنِ المَضَاجع يَدْعُونَ رَبهم خَوْفاً وطَمَعاً ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون) (١) .

وفى بعض الآثار : باكروا بالصدقة ، فإن البلاء لا يتخطى الصدقة .

وفى تمثيل النبى ﷺ ذلك بمن قدم ليضرب عنقه فافتدى نفسه منهم بماله كفاية ، فإن الصدقة تفدى العبد من عذاب الله تعالى ، فإن ذنوبه وخطاياه تقتضى هلاكه ، فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتكفه منه .

ولهذا قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح لما خطب النساء يوم العيد : « يامعشر النساء تصدقن ولو من حليكن ، فإنى رأيتكن أكثر أهل النار » (٢) وكأنه حثهن ورغبهن على ما يفدين به أنفسهن من النار .

وفى « الصحيحين » عن عدى بن حاتم قال : قال رسول الله ﷺ « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه ، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة » (٣) .

وفى حديث أبى ذر أنه قال : سألت رسول الله ﷺ : ماذا ينجى العبد من النار ؟ قال : « الإيمان بالله ، قلت : يانبى الله ، مع الإيمان عمل ؟ قال : « أن ترضخ مما خولك الله أو ترضخ مما رزقك الله » قلت : يانبى الله ، فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ ؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . قلت : إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؟ قال : فليعن الأخرق . قلت : يارسول الله ، أرأيت إن كان لا يحسن أن

---

(١) السجدة : ١٦ .

(٢) رواه الترمذى رقم ٦٣٥ و ٦٣٦ فى الزكاة ، باب فى زكاة الحلى ، وهو حديث صحيح ، وهو فى البخارى ومسلم ملفق من حديثين .

(٣) رواه البخارى ٣/٢٢٣ فى الزكاة باب الصدقة قبل الرد ، ومسلم رقم ١٠١٦ فى الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة .

يصنع ؟ قال : فليعن مظلوماً . قلت يارسول الله أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوماً ؟ قال : ما تريد أن تترك فى صاحبك من خير ؟ ليمسك أذاه عن الناس ، قلت : يارسول الله ، أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة ؟ قال : « ما من مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى أدخلته الجنة » ذكره البيهقى فى كتاب « شعب الإيمان » (١)

وقال عمر بن الخطاب : ذكر لى أن الأعمال تتباهى ، فتقول الصدقة ، أنا أفضلكم .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة قال : ضرب رسول الله ﷺ مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد ، أو جنتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثديهما وتراقيهما ، فجعل المتصدق كلما تصدق بصدقة انبسطت عنه حتى تغشى أنامله ، وتعفو أثره ، وجعل البخيل كلما هم بصدقة ، قلصت وأخذت كل حلقة مكانها ، قال أبو هريرة : فأنا رأيت رسول الله ﷺ يقول بأصبعه هكذا فى جيبه ، فلو رأيته يوسعها ولا تتسع » (٢) .

ولما كان البخيل محبوساً عن الإحسان ، ممنوعاً عن البر والخير ، كان جزاؤه من جنس عمله ، فهو ضيق الصدر ، ممنوع من الانشراح ، ضيق العطن ، صغير النفس ، قليل الفرح ، كثير الهم والغم والحزن ، لا يكاد تقضى له حاجة ، ولا يعان على مطلوب .

فهو كرجل عليه جبة من حديد ، قد جمعت يداه إلى عنقه بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها ، وكلما أراد إخراجها ، أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها ، وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله فبقى قلبه فى سجنه كما هو ، والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه ، وانفسح بها صدره ، فهو بمنزلة إتساع تلك الجبة

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم .

(٢) رواه البخارى، ١٠٠/٢٢٧و٢٢٨ فى اللباس باب جيب القميص من عند الصدر وغيره، وفى الزكاة باب مثل البخيل المتصدق ، وفى الجهاد باب ما قيل فى درع النبى صلى الله عليه وسلم والقميص فى الحرب ، ومسلم رقم ١٠٢١ فى الزكاة باب مثل البخيل المتصدق .

عليه ، فكلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح ، وقوى فرحه ، وعظم سروره ، ولو لم يكن فى الصدقة إلا هذه الفائدة وحدها ، لكان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها . وقد قال تعالى :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (١) .

وكان عبد الرحمن بن عوف — أو سعد بن أبى وقاص — يطوف بالبيت ، وليس له دأب إلا هذه الدعوة : رب قنى شح نفسى ، رب قنى شح نفسى ، فقيل له : أما تدعو بغير هذه الدعوة ؟ فقال : إذا وقيت شح نفسى ، فقد أفلحت .

والفرق بين الشح والبخل ، أن الشح : هو شدة الحرص على الشىء ، والاحفاء فى طلبه ، والاستقصاء فى تحصيله ، وجشع النفس عليه ، والبخل : منع إنفاقه بعد حصوله وحبه وإمساكه ، فهو شحيح قبل حصوله ، بخيل بعد حصوله ، فالبخل ثمرة الشح ، والشح يدعو إلى البخل ، والشح كامن فى النفس ، فمن بخل فقد أطاع شحه ، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقى شره ، وذلك هو المفلح :

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

والسخى قريب من الله تعالى ، ومن خلقه ، ومن أهله ، وقريب من الجنة ، وبعيد من النار ، والبخيل بعيد من خلقه ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، فجود الرجل يحببه إلى أضداده ، وبخله يبغضه إلى أولاده .

ويُظْهِرُ عيْب المرْءِ فى النَّاسِ بُخْلُهُ ... ويسْتُرُه عنْهُمْ جميعًا سخَاؤه
تَغَطَّ بأَثوابِ السَّخَاءِ فَإِننى ... أَرى كُلَّ عيْبٍ فالسَّخَاءُ غِطَاؤُه
وقارِنْ إِذَا قَارنْتَ حُـرًّا فإِنَّما ... يزِينُ ويُزْرِى بالفَتَى قُرنَاؤُهُ
وأَقْلِلْ إِذَا ما استطَعت قَوْلاً فإِنَّه ... إِذَا قلَّ قَوْلُ المرْءِ قَلَّ خَطَاؤُه
إِذَا قَلَّ مالُ المرءِ قَلَّ صديقُه ... وضَاقَتْ علَيْهِ أَرْضُه وسماؤه

---

(١) الحشر : ٩ .

وأصبح لا يدرى وإن كان حــازمًا أَقُدَّامــه خيرٌ له أَمْ وراؤهُ
إذا المرءُ لم يـختر صديـــقاً لنفسهِ فَنَادِ به فى الناس هذا جزَاؤهُ

وحد السخاء : بذل ما يحتاج إليه عند الحاجة ، وأن يوصل ذلك إلى مستحقه بقدر الطاقة ، وليس — كما قال بعض من نقص علمه — : حد الجود : بذل الموجود ، ولو كان كما قال هذا القائل ، لارتفع اسم السرف والتبذير ، وقد ورد الكتاب بذمهما ، وجاءت السنة بالنهى عنهما ، وإذا كان السخاء محموداً ، فمن وقف على حده سمى كريماً وكان للحمد مستوجباً ، ومن قصر عنه كان بخيلا ، وكان للذم مستوجباً ، وقد روى فى أثر : إن الله عز وجل أقسم بعزته ألا يجاوره بخيل .

والسخاء نوعان :

فأشرفهما : سخاؤك عما بيد غيرك .

والثانى : سخاؤك ببذل ما فى يدك .

فقد يكون الرجل من أسخى الناس وهو لا يعطيهم شيئاً ، لأنه سخا عما فى أيديهم ، وهذا معنى قول بعضهم : السخاء أن تكون بمالك متبرعاً ، وعن مال غيرك متورعاً .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : أوحى الله إلى إبراهيم ﷺ « أتدرى لم اتخذتك خليلا ! ؟ قال : لا ، قال : لأنى رأيت العطاء أحب إليك من الأخذ » . وهذه صفة من صفات الرب جل جلاله ، فإنه يعطى ولا يأخذ ، ويطعم ولا يطعم ، وهو أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأحب الخلق إليه من اتصف بمقتضيات صفاته ، فإنه كريم يحب الكريم من عباده ، وعالم يحب العلماء ، وقادر يحب الشجعان ، وجميل يحب الجمال .

روى الترمذى فى « جامعه » قال : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا أبو عامر أخبرنا خالد بن الياس ، عن صالح بن أبى حسان ، قال : سمعت سعيد ابن المسيب يقول : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود » ،

قال : فذكرت ذلك للمهاجر بن مسمار فقال : حدثنيه عامر بن سعد عن أبيه رضى الله تعالى عنه عن النبي ﷺ مثله ، إلا أنه قال : « فنظفوا أفنيتكم » هذا حديث غريب ، خالد بن الياس يضعف (١) .

وفى الترمذى أيضاً فى « كتاب البر » قال : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا سعيد بن محمد الوراق ، عن يحي بن سعيد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل » (٢) .

وفى الصحيح : « إن الله تعالى وتر يحب الوتر » (٣) .

وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستير يحب من يستر على عباده ، وعفو يحب من يعفو عنهم ، وغفور يحب من يغفر لهم ، ولطيف يحب اللطيف من عباده ، ويبغض الفظ الغليظ القاسى الجعظرى الجواظ ، ورفيق يحب الرفق ، وحليم يحب الحلم ، وبر يحب البر وأهله ، وعدل يحب العدل ، وقابل المعاذير ، يحب من يقبل معاذير عباده ، ويجازى عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً وعدماً ،

---

(١) رواه الترمذى رقم ٢٨٠٠ فى الادب ، باب ما جاء فى النظافة وفى سنده خالد بن الياس أو إياس وهو متروك الحديث كما قال الحافظ فى «التقريب» وله شاهد عند الطبرانى فى « الأوسط » من حديث سعد بن أبي وقاص ، ذكره السيوطى فى « الجامع الصغير » بلفظ : « طهروا أفنيتكم فإن اليهود لا تطهر أفنيتها » قال المناوى فى « فيض القدير » : قال الهيثمى : ورجاله رجال الصحيح خلا شيخ الطبرانى ، فالحديث حسن .

(٢) رواه الترمذى رقم ١٩٦٢ فى البر ، باب ما جاء فى السخاء ، وسعيد بن محمد الوراق هو ضعيف . وقال الترمذى : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث يحي بن سعيد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة إلا من حديث سعيد بن محمد ، وقد خولف سعيد بن محمد فى رواية هذا الحديث عن يحيى بن سعيد ، إنما يروى عن يحيى بن سعيد عن عائشة مرسلا .

(٣) رواه البخارى ١١ / ١٨٠ و ١٩٤ فى الدعوات باب لله مائة اسم ، ومسلم رقم ٢٦٧٧ فى الذكر باب فى أسماء الله تعالى .

فمن عفا عفا عنه ، ومن غفر غفر له ، ومن سامح سامحه ، ومن حاقق حاققه ، ومن رفق بعباده رفق به ، ومن رحم خلقه رحمه ، ومن أحسن إليهم أحسن إليه ، ومن جاد عليهم جاد عليه ، ومن نفعهم نفعه ، ومن سترهم ستره ، ومن صفح عنهم صفح عنه ، ومن تتبع عوراتهم تتبع عورته ، ومن هتكهم هتكه وفضحه ، ومن منعهم خيره منعه خيره ، ومن شاق شاق الله تعالى به ، ومن مكر مكر به ، ومن خادع خادعه ، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها فى الدنيا والآخرة ، فالله تعالى لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه . ولهذا جاء فى الحديث : « من ستر مسلماً ستره الله تعالى فى الدنيا والآخرة ، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله تعالى عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله تعالى حسابه » (١) . و « من أقال نادماً أقال الله تعالى عثرته » (٢). « ومن أنظر معسراً أو وضع عنه . أظله الله تعالى فى ظل عرشه » (٣) لأنه لما جعله فى ظل الإنظار والصبر ونجاه من حر المطالبة ، وحرارة تكلف الأداء مع عسرته وعجزه ، نجاه الله تعالى من حر الشمس يوم القيامة إلى ظل العرش .

وكذلك الحديث الذى فى الترمذى وغيره ، عن النبى ﷺ أنه قال فى خطبته يوماً : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه ، لاتؤذوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف بيته »(٤) .

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٦٩٩ فى الذكر باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ، وأبو داود رقم ٤٩٤٦ فى الأدب باب فى المعونة للمسلم ، وأحمد فى « المسند » ٢٥٢/٢ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ولفظه فى آخره : يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة .

(٢) رواه البيهقى فى « السنن » وبمعناه رواه أحمد فى « المسند » ٢٥٢/٢ ، وأبو داود رقم ٣٤٦٠ فى البيوع باب فى الإقالة . وابن ماجه رقم ٢١٩٩ فى التجارات باب الإقالة من حديث أبى هريرة . وإسناده حسن .

(٣) رواه أحمد فى « المسند » ٤٢٧/٣ ، ومسلم رقم ٣٠٠٦ فى الزهد باب حديث جابر الطويل وقصة أبى اليسر .

(٤) رواه الترمذى رقم ٢٠٣٦ فى البر باب ما جاء فى تعظيم المؤمن من حديث ابن عمر وإسناده حسن ، هذا حديث حسن غريب ورواه أحمد وأبو داود من حديث أبى برزة الأسلمى وأبو يعلى من حديث أبى الدرداء .

فكما تدين تدان : وكن كيف شئت فإن الله تعالى لك كما تكون أنت له ولعباده .

ولما أظهر المنافقون الإسلام ، وأسروا الكفر ، أظهر الله تعالى لهم يوم القيامة نوراً على الصراط ، وأظهر لهم أنهم يجوزون الصراط ، وأسر لهم أن يطفيء نورهم ، وأن يحال بينهم وبين الصراط من جنس أعمالهم .

وكذلك من يظهر للخلق خلاف ما يعلمه الله فيه ، فإن الله تعالى يظهر له في الدنيا والآخرة أسباب الفلاح والنجاح والفوز ، ويبطن له خلافها .

وفي الحديث : « من راءى راءى الله به ، ومن سمع سمع الله به »(١) .

والمقصود أن الكريم المتصدق يعطيه الله ما لا يعطي البخيل الممسك ، ويوسع عليه في ذاته ، وخلقه ، ورزقه ، ونفسه ، وأسباب معيشته ، جزاء له من جنس عمله .

ذكر الله

وقوله ﷺ : « وأمركم أن تذكروا الله تعالى . فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً ، حتى إذا أتى إلى حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله » : فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة ، لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى ، وأن لا يزال لهجاً بذكره . فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة ، فهو يرصده ، فإذا غفل وثب عليه وافترسه ، وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر ، وانقمع ، حتى يكون كالوصع وكالذباب ، ولهذا سمي ﴿الوسواس الخناس﴾ ، أي : يوسوس في الصدور ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، أي : كف وانقبض .

---

(١) رواه مسلم رقم ٢٩٨٦ في الزهد باب من أشرك في عمله غير الله ، من حديث ابن عباس ، ورواه البخاري ١١ / ٢٨٨ في الرقاق باب الرياء والسمعة ، ومسلم رقم ٢٩٨٧ في الزهد باب من أشرك في عمله غير الله من حديث جندب بن عبد الله ، ورواه ابن المبارك في الزهد من حديث عبد الله بن مسعود .

وقال ابن عباس : الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ، فإذا سها وغفل وسوس ، فإذا ذكر الله تعالى خنس .

وفى « مسند الإمام أحمد » ، عن عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون ؛ عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبى ربيعة ، أنه بلغه عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدمى عملا قط أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عزوجل »(١) .

وقال معـــاذ : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم » ، قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « ذكر الله عز وجل »(٢) .

وفى « صحيح مسلم » ، عن أبى هـــريرة قال : كان رسول الله ﷺ يسير فى طريق مكة ، فمر على جبل يقال له : جمدان ، فقال : سيروا . هذا جمدان ، سبق المفردون » . قيل : وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات »(٣) .

وفى « السنن » عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله تعالى فيـــه ، إلا قاموا عن مثل جيفة حمار ، وكان عليهم حسرة »(٤) .

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٥/٢٣٩ بطوله عن زياد بن أبى زياد مولى عبد الله بن عياش مرفوعاً ، وإسناد منقطع . وكذلك رواه البيهقى وابن عبد البر عن معاذ مرفوعاً . رواه مالك فى الموطأ » ١/٢١١ موقوفاً على معاذ ، وهو منقطع عنده ، أيضاً ، قال المناوى فى « فيض القدير » وقد رواه الطبرانى عن جابر برفعه بسند رجاله رجال الصحيح .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » ٥/٢٣٩ من حديث زياد بن أبى زياد عن معاذ ، وإسناده منقطع ، رواه مالك فى « الموطأ » ١/٢١١ موقوفاً على أبى الدرداء ، وإسناده منقطع ، وقد وصله أحمد فى « المسند » ٥/١٩٥ . والترمذى رقم ٣٣٧٤ فى الدعوات .. وابن ماجه رقم ٣٣٩٠ فى الأدب . باب فضل الذكر ، والحاكم فى « المستدرك » ١/٤٩٦ كلهم من حديث أبى الدرداء ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٣) رواه مسلم رقم (٢٧٧٦) فى الذكر باب الحث على ذكر الله .

(٤) رواه أبو داود رقم ٤٨٥٥ فى الأدب باب كراهية أن يقوم الرجل من مجلسه ولا يذكر الله ، ورواه أيضاً أحمد فى « المسند » ٢/٣٨٩ و ٤٩٤ و ٥١٥ و ٥٢٧ وإسناده حسن .

وفى رواية الترمذى : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم »(١) .

وفى « صحيح مسلم » ، عن الأغر أبى مسلم قال : أشهد على أبى هريرة وأبى سعيد ، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : « لا يقعد قوم فى مجلس يذكرون الله فيه إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده »(٢) .

وفى الترمذى عن عبد الله بن بسر أن رجلا قال : يارسول الله ، إن أبواب الخير كثيرة ، ولا أستطيع القيام بكلها ، فأخبرنى بما شئت أتشبث به ، ولا تكثر على فأنسى . وفى رواية : إن شرائع الإسلام قد كثرت على ، وأنا قد كبرت ، فأخبرنى بشىء أتشبث به . قال : « لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى »(٣) .

وفى الترمذى أيضاً عن أبى سعيد . أن رسول الله ﷺ سئل : أى العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً » قيل : يا رسول الله ، ومن الغازى فى سبيل الله ؟ قال : « لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً كان الذاكر لله تعالى أفضل منه درجة »(٤) .

وفى « صحيح البخارى » ، عن أبى موسى : عن النبى ﷺ قال : « مثل الذى يذكر ربه ، والذى لايذكر ربه ، مثل الحى والميت »(٥) .

---

(١) رواه الترمذى رقم ٣٣٧٧ فى الدعوات باب القوم يجلسون ولا يذكرون الله . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

(٢) رواه مسلم رقم ٢٧٠٠ فى الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

(٣) رواه الترمذى رقم (٣٣٧٢) فى الدعوات باب فضل الذكر ، وابن ماجه رقم ٣٧٩٣ فى ادب باب فضل الذكر ، وقال الترمذى : حديث حسن غريب وهو كما قال ، ورواه أيضاً ابن حبان رقم ٢٣١٧ « موارد » والحاكم ١/٤٩٥ وصححه ووافقه الذهبى ، وهو كما قالا

(٤) رواه الترمذى رقم ٣٣٧٣ فى الدعوات باب رقم ٥ وإسناده ضعيف ، وقال الترمذى : هذا حديث غريب ورواه البيهقى مختصراً . .

(٥) رواه البخارى ١١/١٧٥ و ١٧٦ فى الدعوات باب فضل ذكر الله عز وجل ، ومسلم رقم (٧٧٩) فى صلاة المسافرين باب استحباب صلاة النافلة فى بيته .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تبارك وتعالى : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ، ذكرته فى ملإ خير منهم ، وإن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إلى ذراعاً ، تقربت منه باعاً ، وإذا أتانى يمشى ، أتيته هرولة »(١) ..

وفى الترمذى عن أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا » قالوا : يا رسول الله ، وما رياض الجنة ؟ قال : « حلق الذكر »(٢) .

وفى الترمذى أيضاً عن النبى ﷺ ، عن الله عز وجل أنه يقول : « إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى وهو ملاق قرنه » (٣) .

وهذا الحديث هو فصل الخطاب فى التفضيل بين الذاكر والمجاهد : فإن الذاكر المجاهد ، أفضل من الذاكر بلا جهاد والمجاهد الغافل . والذاكر بلا جهاد ، أفضل من المجاهد الغافل عن الله تعالى .

فأفضل الذاكرين المجاهدون ، وأفضل المجاهدين الذاكرون .

قال الله تعالى :(يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا لَقِيتُم فِئَةً فاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُم تُفْلِحُون)(٤) .

فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً ، ليكونوا على رجاء من الفلاح ؛ وقد قال تعالى :

(يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا)(٥) .

---

(١) رواه البخارى ١٣/٤٢٨ فى التوحيد باب ذكر النبى صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه ومسلم رقم ٢٦٧٥ فى الذكر باب الحث على ذكر الله تعالى .

(٢) رواه الترمذى رقم (٣٥٠٥) فى الدعوات باب رقم (٨٧) وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ورواه أحمد والبيهقى فى « شعب الإيمان » .

(٣) رواه الترمذى رقم (٣٥٧٥) فى الدعوات باب من أدعية الإجابة ، وإسناده ضعيف وقال الترمذى : هذا حديث غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده ليس بالقوى .

(٤) الأنفال : ٤٥ .

(٥) الأحزاب : ٤١ .

وقال تعالى : ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (١) .

أى : كثيراً .

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ (٢).

ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، فأى لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه ، لا له ، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح فى غفلته عن الله .

وقال بعض العارفين : لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة ، ثم أعرض عنه لحظة ، لكان ما فاته أعظم مما حصله . وذكر البيهقى عن عائشة ، عن النبى ﷺ أنه قال : « ما من ساعة تمر بابن آدم لا يذكر الله تعالى فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة »(٣) .

وذكر عن معاذ بن جبل يرفعه أيضاً : « ليس تحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها »(٤) .

وعن أم حبيبة زوج النبى ﷺ قالت : قال رسول الله ﷺ : « كلام ابن آدم كله عليه لا له ، إلا أمراً بمعروف . أو نهياً عن منكر ، أو ذكراً لله عز وجل »(٥) .

وعن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله ﷺ : أى الأعمال

---

(١) الأحزاب : ٣٥ .

(٢) البقرة : ٢٠٠ .

(٣) ذكره المنذرى فى « الترغيب والترهيب » وزاد نسبته لابن أبى الدنيا وقال : قال البيهقى : فى هذا الإسناد ضعف ، غير أن له شواهد .

(٤) ذكره المنذرى فى « الترغيب والترهيب » ونسبه للطبرانى ، وقال : ورواه البيهقى بأسانيد أحدها جيد .

(٥) رواه الترمذى رقم (٢٤١٤) فى الزهد باب رقم ٦٣ ، وابن ماجة رقم (٣٩٧٤) والفتن ، باب كف اللسان فى الفتنة ، وفى سنده أم صالح بنت صالح لا يعرف حالها . ورواه أيضاً الحاكم والبيهقى فى « الشعب » وقال الترمذى : حديث غريب ، وفى بعض النسخ : حسن غريب .

أحب إلى الله عز وجل ؟ قال : « أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل »(١) .

وقال أبو الدرداء رضى الله تعالى عنه : لكل شىء جلاء ، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل .

وذكر البيهقى مرفوعاً من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه كان يقول : « لكل شىء صقالة ، وإن صقالة القلوب ذكر الله عز وجل ، وما من شىء أنجى من عذاب الله عز وجل من ذكر الله عز وجل » قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله عز وجل ؟ قال : « ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع »(٢) . ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما ، وجلاؤه بالذكر ، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء . فإذا ترك صدىء ، فإذا ذكره جلاه .

وصدأ القلب بأمرين : بالغفلة والذنب ، وجلاؤه بشيئين : بالاستغفار والذكر ، فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته ، كان الصدأ متراكباً على قلبه ، وصدؤه بحسب غفلته ، وإذا صدىء القلب ، لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هى عليه ، فيرى الباطل فى صورة الحق ، والحق فى صورة الباطل ، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم ، فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هى عليه .

فإذا تراكم عليه الصدأ واسود ، وركبه الران ، فسد تصوره وإدراكه ، فلا يقبل حقاً ، ولا ينكر باطلاً . وهذا أعظم عقوبات القلب . وأصل ذلك من الغفلة ، واتباع الهوى ، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره .

قال تعالى : (وَلَاتُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا واتبع هواهُ وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)(٣) .

---

(١) رواه ابن حبان رقم ٢٣١٨ « موارد » ورواه أيضاً الطبرانى وابن أبى الدنيا والبزار ، وهو حديث حسن .

(٢) ذكره المنذرى فى « الترغيب والترهيب » وزاد نسبته لابن أبى الدنيا ، وإسناده ضعيف ، والشطر الثانى منه شاهد عند الطبرانى من حديث معاذ ، وجابر .

(٣) الكهف : ٢٨ .

فإذا أراد العبد أن يقتدى برجل فلينظر : هل هو من أهل الذكر ، أو من الغافلين ؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحى ؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة ، كان أمره فرطاً .

ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع ، أى : أمره الذى يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه ، وفسر بالإسراف ، أى : قد أفرط ، وفسر بالإهلاك ، وفسر بالخلاف للحق . وكلها أقوال متقاربة ، والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات ، فينبغى للرجل أن ينظر فى شيخه وقدوته ومتبوعه ، فإن وجده كذلك فليبعد منه ، وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله تعالى واتباع السنة ، وأمره غير مفروط عليه ، بل هو حازم فى أمره ، فليتمسك بغرزه ، ولا فرق بين الحى والميت إلا بالذكر ، فمثل الذى يذكر ربه ، والذى لايذكر ربه ، كمثل الحى والميت .

وفى « المسند » مرفوعاً : « أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقال : مجنون»(١)

وفى الذكر أكثر من مائة فائدة :

إحداها : أنه يطرد الشيطان ويقمعه ويكسره .

الثانية : أنه يرضى الرحمن عز وجل .

الثالثة : أنه يزيل الهم والغم عن القلب .

الرابعة : أنه يجلب للقلب الفرح والسرور والبسط .

الخامسة : أنه يقوى القلب والبدن .

السادسة : أنه ينور الوجه والقلب .

السابعة : أنه يجلب الرزق .

الثامنة : أنه يكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة .

التاسعة : أنه يورثه المحبة التى هى روح الإسلام . وقطب رحى الدين ومدار السعادة والنجاة . وقد جعل الله لكل شيء سبباً ، وجعل سبب المحبة

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٣/٦٨ و ٧١ من حديث دراج أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد . ودراج عن أبى الهيثم ضعيف .

دوام الذكر ، فمن أراد أن ينال محبة الله عز وجل ، فليلهج بذكره ، فإنه الدرس والمذاكرة ، كما أنه باب العلم ، فالذكر باب المحبة ، وشارعها الأعظم ، وصراطها الأقوم .

العاشرة : أنه يورثه المراقبة حتى يدخله فى باب الإحسان ، فيعبد الله كأنه يراه ، ولا سبيل للغافل عن الذكر إلى مقام الإحسان ، كما لا سبيل للقاعد إلى الوصول إلى البيت .

الحادية عشرة : أنه يورثه الإنابة ، وهى الرجوع إلى الله عز وجل فمتى أكثر الرجوع إليه بذكره ، أورثه ذلك رجوعه بقلبه إليه فى كل أحواله ، فيبقى الله عز وجل مفزعه وملجأه ، وملاذه ، ومعاذه ، وقبلة قلبه ومهربه عند النوازل والبلايا .

الثانية عشرة : أنه يورثه القرب منه ، فعلى قدر ذكره الله عز وجل يكون قربه منه ، وعلى قدر غفلته يكون بعده منه .

الثالثة عشرة : أنه يفتح له باباً عظيماً من أبواب المعرفة ، وكلما أكثر من الذكر إزداد من المعرفة .

الرابعة عشرة : أنه يورثه الهيبة لربه عز وجل وإجلاله ، لشدة استيلائه على قلبه وحضوره مع الله تعالى ، بخلاف الغافل ، فإن حجاب الهيبة رقيق فى قلبه .

الخامسة عشرة : أنه يورثه ذكر الله تعالى له ، كما قال تعالى : (فاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ) (١) .

ولو لم يكن فى الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلا وشرفاً .

وقال ﷺ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « من ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، ومن ذكرنى فى ملإ ، ذكرته فى ملإ خير منهم » (٢) .

---

(١) البقرة : ١٥٢ .

(٢) رواه البخارى ١٣/٣٢٥ و ٣٢٦ فى التوحيد ، باب قول الله تعالى : (ويحذركم الله نفسه) ومسلم رقم ٢٦٧٥ فى الذكر باب الحث على ذكر الله تعالى .

السادسة عشرة : أنه يورث حياة القلب ، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله تعالى روحه يقول : الذكر للقلب مثل الماء للسمك ، فكيف يكون حال السمك إذا فارق الماء ؟

السابعة عشرة : أنه قوت القلب والروح ، فإذا فقده العبد صار بمنزلة الجسم إذا حيل بينه وبين قوته .

وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر ، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار ، ثم التفت إلى وقال : هذه غدوتى ، ولو لم أتغد الغداء سقطت قوتى ، أو كلاماً قريباً من هذا . وقال لى مرة : لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسى وإراحتها لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر ، أو كلاماً هذا معناه .

الثامنة عشرة : أنه يورث جلاء القلب من صداه كما تقدم فى الحديث .

وكل شيء له صدأ ، وصدأ القلب الغفلة والهوى ، وجلاؤه الذكر والتوبة والاستغفار ، وقد تقدم هذا المعنى .

التاسعة عشرة : أنه يحط الخطايا ويذهبها ، فإنه من أعظم الحسنات ، والحسنات يذهبن السيئات .

العشرون : أنه يزيل الوحشة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى ، فإن الغافل بينه وبين الله عز وجل وحشة لا تزول إلا بالذكر .

الحادية والعشرون : أن ما يذكر به العبد ربه عز وجل من جلاله وتسبيحه وتحميده ، يذكر بصاحبه عند الشدة ، فقد روى الإمام أحمد فى « المسند » عن النبى ﷺ أنه قال : « إن ما تذكرون من جلال الله عز وجل من التهليل والتكبير والتحميد يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن بصاحبهن ، أفلا يحب أحدكم أن يكون له ما يذكر به » (١) ؟ هذا الحديث أو معناه .

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٤/٢٦٨ و ٢٧١ من حديث عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن أبيه أو أخيه ، هكذا رواه بالشك ، ورواته ثقات ، إلا أن رواية عون بن عبد الله عن أبيه مرسلة .

الثانية والعشرون : أن العبد إذا تعرف إلى الله تعالى بذكره فى الرخاء ، عرفه فى الشدة ، وقد جاء أثر معناه : أن العبد المطيع الذاكر لله تعالى ، إذا أصابته شدة أو سأل الله تعالى حاجة ، قالت الملائكة : يارب صوت معروف ، من عبد معروف . والغافل المعرض عن الله عز وجل إذا دعاه وسأله ، قالت الملائكة : يارب ، صوت منكر ، من عبد منكر .

الثالثة والعشرون : أنه ينجى من عذاب الله تعالى ، كما قال معاذ رضى الله عنه . ويروى مرفوعاً : « ما عمل آدمى عملا أنجى له من عذاب الله عز وجل من ذكر الله تعالى »(١) .

الرابعة والعشرون : أنه سبب تنزيل السكينة ، وغشيان الرحمة ، وحفوف الملائكة بالذاكر كما أخبر به النبى ﷺ .

الخامسة والعشرون : أنه سبب اشتغال اللسان عن الغيبة ، والنميمة ، والكذب ، والفحش ، والباطل ، فإن العبد لا بد له من أن يتكلم ، فإن لم يتكلم بذكر الله تعالى ، وذكر أوامره ، تكلم بهذه المحرمات أو بعضها ، ولا سبيل إلى السلامة منها البتة إلا بذكر الله تعالى .

والمشاهدة والتجربة شاهدان بذلك ؛ فمن عود لسانه ذكر الله ، صان لسانه عن الباطل واللغو ، ومن يبس لسانه عن ذكر الله تعالى ، ترطب بكل باطل ولغو وفحش ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السادسة والعشرون : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس اللغو والغفلة مجالس الشياطين ، فليتخير العبد أعجبهما إليه ، وأولاهما به ، فهو مع أهله فى الدنيا والآخرة .

السابعة والعشرون : أنه يسعد الذاكر بذكره ، ويسعد به جليسه ، وهذا هو المبارك أين ما كان . والغافل واللاغى يشقى بلغوه وغفلته ، ويشقى به مجالسه .

الثامنة والعشرون : أنه يؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة ، فإن كان مجلس لا يذكر العبد فيه ربه تعالى كان عليه حسرة وترة يوم القيامة .

---

(١) تقدم تخريجه صفحة (٤٧) رقم (١٠) .

التاسعة والعشرون : أنه مع البكاء في الخلوة سبب لإظلال الله تعالى العبد يوم الحر الأكبر في ظل عرشه ، والناس في حر الشمس قد صهرتهم في الموقف ، وهذا الذاكر مستظل بظل عرش الرحمن عز وجل .

الثلاثون : أن الاشتغال به سبب لعطاء الله للذاكر أفضل ما يعطى السائلين ، ففي الحديث عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله ﷺ : « قال سبحانه وتعالى : من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين » (١) .

الحادية الثلاثون : أنه أيسر العبادات ، وهو من أجلها وأفضلها . فإن حركة اللسان أخف حركات الجوارح وأيسرها ، ولو تحرك عضو من الإنسان في اليوم والليلة بقدر حركة لسانه لشق عليه غاية المشقة ، بل لا يمكنه ذلك .

الثانية والثلاثون : أنه غراس الجنة ، فقد روى الترمذي في « جامعه » من حديث عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « لقيت ليلة أسري بي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال : يا محمد أقرء أمتك (مني) السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » . قال الترمذي : حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود (٢) .

وفي الترمذي من حديث أبي الزبير ، عن جابر عن النبي ﷺ قال : « من قال : سبحان الله وبحمده ، غرست له نخلة في الجنة » قال الترمذي : حديث حسن صحيح (٣) .

---

(١) رواه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد ص /٩٣ من حديث عمر ، ورواه الترمذي رقم ٢٩٢٧ في ثواب القرآن باب رقم ٢٥ من حديث أبي سعيد الخدري ، وذكره السيوطي في « الجامع الكبير » ونسبه للبخاري في خلق أفعال العباد ، والبيهقي من حديث عمر وجابر ، ولابن أبي شيبة من حديث عمرو بن مرة مرسلا . وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٢) رواه الترمذي رقم ٣٤٥٨ في الدعوات باب رقم (٦٠) وفي سنده عبد الرحمن بن إسحاق بن الحارث الواسطي وهو ضعيف . وقال الترمذي : وفي الباب عن أبي أيوب ، وهو حديث حسن بشواهده .

(٣) رواه الترمذي رقم ٣٤٦٠ و ٣٤٦١ في الدعوات باب رقم (٦١) . ورواه أيضاً ابن حبان في « صحيحه » رقم (٢٣٣٥) وهو حديث حسن ، وذكره المنذري في « الترغيب والترهيب » ، وقال : رواه البزار بسند جيد .

الثالثة والثلاثون : أن العطاء والفضل الذى رتب عليه لم يرتب على غيره من الأعمال .

ففى «الصحيحين» عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : «من قال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى . ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه ، ومن قال : سبحان الله وبحمده فى يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر» (١) .

وفى «صحيح مسلم» عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، أحب إلى مما طلعت عليه الشمس» (٢) .

وفى الترمذى من حديث أنس ، أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يصبح أو يمسى : اللهم إنى أصبحت أشهدك ، وأشهد حملة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك . أنك أنت الله لا إله إلاأنت . وأن محمداً عبدك ورسولك ، أعتق الله ربعه من النار ، ومن قالها مرتين ، أعتق الله نصفه من النار ، ومن قالها ثلاثاً ، أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار . ومن قالها أربعاً ، أعتقه الله تعالى من النار» (٣) .

وفيه عن ثوبان ، أن رسول الله ﷺ قال : «من قال حين يمسى

---

(١) رواه البخارى ١١/١٦٨ و ١٦٩ فى الدعوات باب فضل التهليل وفى بدء الخلق باب صفة إبليس ، ومسلم رقم ٢٦٩١ فى الذكر ، باب فضل التهليل والتسبيح .

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٩٥) فى الذكر باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء .

(٣) رواه الترمذى رقم ٣٤٩٥ فى الدعوات باب رقم (٨١) بلفظ : «من قال حين يصبح : اللهم أصبحنا نشهدك ونشهد حملة عرشك ، وملائكتك ، وجميع خلقك ، بأنك أنت الله لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك إلا غفر الله له ما أصاب فى يومه ذلك ، وإن قالها حين يمسى غفر الله له ما أصاب فى تلك الليلة من ذنب» والرواية التى ذكرها المصنف فى هذا الحديث هى عند أبى داود رقم ٥٠٦٩ فى الأدب باب ما يقول إذا أصبح ، وهو حديث حسن بشواهده .

وإذا أصبح : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ رسولا ، كان حقاً على الله أن يرضيه »(١) .

وفى الترمذى : « من دخل السوق فقال : لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت ، وهو حى لايموت ، بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحا عنه ألف ألف سيئة ، ورفع له ألف ألف درجة » (٢) .

الرابعة والثلاثون : أن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذى هو سبب شقاء العبد فى معاشه ومعاده ، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها ، قال تعالى :

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُم أُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ) (٣) .

وإذا نسى العبد نفسه ، أعرض عن مصالحها ونسيها ، واشتغل عنها ، فهلكت وفسدت ولا بد ، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه ، فأهمله ونسيه ، واشتغل عنه بغيره ، وضيع مصالحه ، فإنه يفسد ولا بد .

هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه ، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها ، واشتغل عن مصالحها ، وعطل مراعاتها ، وترك القيام عليها بما يصلحها ؟ فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان . وهذا هو الذى صار أمره كله فرطاً ، فانفرط عليه أمره ، وضاعت مصالحه ، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك . ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به ، وأن لا يزال اللسان رطباً به ، وأن يتولى منزلة حياته التى لاغنى له عنها ، ومنزلة غذائه الذى إذا فقده فسد

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٤/٣٣٧ والترمذى رقم (٣٣٨٦) فى الدعوات باب ما جاء فى الدعاء إذا أصبح وإذا أمسى ، وهو حديث حسن .

(٢) رواه الترمذى رقم (٣٤٢٤) فى الدعوات باب ما يقول إذا دخل السوق ، ورواه أيضاً ابن ماجه . وابن أبى الدنيا والحاكم وغيره ، وهو حديث حسن .

(٣) الحشر : ١٩ .

جسمه وهلاك ، وبمنزلة الماء عند شدة العطش ، وبمنزلة اللباس فى الحر والبرد ، وبمنزلة الكن فى شدة الشتاء والسموم .

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم ، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده ؟ هذا هلاك لا بد منه ، وقد يعقبه صلاح لا بد ، وأما هلاك القلب والروح ، فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ولو لم يكن فى فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها ، لكفى بها ، فمن نسى الله تعالى أنساه نفسه فى الدنيا ، ونسيه فى العذاب يوم القيامة .

قال تعالى : (ومنْ أَعْرَضَ عنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لهُ معيْشَةً ضَنْكًا ونَحْشُرُهُ يوْم القِيامةِ أَعْمى * قَال ربِّ لِم حشَرْتَنى أَعْمى وقَدْ كُنْتُ بَصيرًا * قَالَ كَذَلكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسيتَها وَكَذَلِكَ الْيوْمَ تُنْسَى)(١)

أى : تنسى فى العذاب كما نسيت آياتى : فلم تذكرها ولم تعمل بها .

وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذى أنزله ، وهو أن يذكر الذى أنزله فى كتابه ، وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه ، وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ، ونعمه ، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى ، فإن الذكر فى الآية إما مصدر مضاف إلى الفاعل ، أو مضاف إضافة الأسماء المحضة ، أى : من أعرض عن كتابى ولم يتله ، ولم يتدبره ، ولم يعمل به ، ولا فهمه ، فإن حياته ومعيشته لا تكون إلا مضيقة عليه منكدة معذباً فيها .

والضنك : الضيق والشدة والبلاء . ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة ، وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ ، والصحيح : أنها تتناول معيشته فى الدنيا وحاله فى البرزخ ، فإنه يكون فى ضنك فى الدارين ، وهو شدة وجهد وضيق . وفى الآخرة ينسى فى العذاب . وهذا عكس أهل السعادة والفلاح ، فإن حياتهم فى الدنيا أطيب الحياة ، ولهم فى البرزخ وفى الآخرة أفضل الثواب .

---

(١) طه : ١٢٤ : ١٢٦ .

قال تعالى : (مَنْ عمِلَ صالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وهُو مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِينَّهُ حياةً طَيِّبةً)(١) .

فهذا فى الدنيا ، ثم قال :

(ولَنَجْزِينَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسنِ ما كَانُوا يعْملُونَ)(٢) .

فهذا فى البرزخ والآخرة . وقال تعالى :

(والَّذين هاجرُوا فى اللهِ مِنْ بعْدِ ما ظُلِمُوا لَنُبوِّئَنَّهُم فى الدُّنْيا حسنَةً ولأَجْرُ الآخِرةِ أَكْبرُ لَوْ كَانُوا يعْلَمُونَ)(٣) .

وقال تعالى :

(وأَن اسْتَغْفِرُوا ربَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِليهِ يُمتِّعْكُمْ متَاعًا حسنًا إِلَى أَجلٍ مُسمًّى ويُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ)(٤) .

فهذا فى الآخرة .

وقال تعالى :

(قُلْ يا عِبادِ الَّذين آمنوا اتَّقُوا ربكم لِلَّذين أَحْسنوا فى هذِهِ الدُّنْيا حسَنةٌ ، وأَرْضُ اللهِ واسِعةٌ ، إِنَّما يُوفَّى الصَّابرُونَ أَجْرهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ)(٥) .

فهذه أربعة مواضع ذكر تعالى فيها أنه يجزى المحسن بإحسانه جزاءين : جزاء فى الدنيا ، وجزاء فى الآخرة . فالإحسان له جزاء معجل ولا بد ، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد . ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن : من انشراح صدره فى انفساح قلبه وسروره ، ولذاته بمعاملة ربه عز وجل ، وطاعته ، وذكره ، ونعيم روحه بمحبته وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه .

(١، ٢) النحل : ٩٧ .
(٣) النحل : ٤١ .
(٤) هود : ٣ .
(٥) الزمر : ١٠ .

وما يجازى به المسيء : من ضيق الصدر ، وقسوة القلب ، وتشتته ، وظلمته ، وحزازته ، وغمه ، وهمه ، وحزنه ، وخوفه ، وهذا أمر لايكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه ، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق : عقوبات عاجلة ، ونار دنيوية وجهنم حاضرة ، والإقبال على الله تعالى ، والإنابة إليه ، والرضى به وعنه ، وامتلاء القلب من محبته ، واللهج بذكره ، والفرح والسرور بمعرفته : ثواب عاجل ، وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه ألبتة .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة .

وقال لى مرة : ما يصنع أعدائى بى ؟ أنا جنتى وبستانى فى صدرى ، إن رحت فهى معى لاتفارقنى ، إن حبسى خلوة ، وقتلى شهادة ، وإخراجى من بلدى سياحة .

وكان يقول فى محبسه فى القلعة : لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ما عدل عندى شكر هذه النعمة ، أو قال : ما جزيتهم على ما تسببوا لى فيه من الخير ، ونحو هذا .

وكان يقول فى سجوده وهو محبوس : « اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » ما شاء الله .

وقال لى مرة : المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى ، والمأسور من أسره هواه .

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال :

(فَضُرِب بيْنَهُم بِسُورٍ لهُ بابٌ باطِنُه فيه الرَّحْمةُ وظاهِرُهُ مِنْ قِبلِهِ العذَابُ) (١) .

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط ، مع ما كان فيه من ضيق العيش ، وخلاف الرفاهية والنعم ، بل ضدها ، ومع ما كان فيه من الحبس

(١) الحديد : ١٣ .

والتهديد والإرهاق ، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً ، وأشرحهم صدراً ، وأقواهم قلباً ، وأسرهم نفساً ، تلوح نضرة النعيم على وجهه .

وكنا إذا اشتد بنا الخوف ، وساءت منا الظنون ، وضاقت بنا الأرض ، أتيناه ، فما هو إلا أن نراه ، ونسمع كلامه ، فيذهب ذلك كله ، وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة .

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه ، وفتح لهم أبوابها فى دار العمل ، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها .

وكان بعض العارفين يقول : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه ، لجالدونا عليه بالسيوف .

وقال آخر : مساكين أهل الدنيا ، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها ؟

قيل : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله تعالى ومعرفته وذكره ، أو نحو هذا .

وقال آخر : إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فها طرباً .

وقال آخر : إنه لتمر بى أوقات أقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب .

فمحبة الله تعالى ، ومعرفته ، ودوام ذكره ، والسكون إليه ، والطمأنينة إليه ، وإفراده بالحب ، والخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والمعاملة ، بحيث يكون هو وحده المستولى على هموم العبد وعزماته وإرادته ، هو جنة الدنيا ، والنعيم الذى لا يشبهه نعيم ، وهو قرة عين المحبين ، وحياة العارفين .

وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل ، فمن قرت عينه بالله ، قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله ، تقطعت نفسه على الدنيا حسرات .

وإنما يصدق هذا من فى قلبه حياة ، وأما ميت القلب ، فيوحشك

ماله ، ثم فاستأنس بغيبته ما أمكنك ، فإنك لا يوحشك إلا حضوره عنده فإذا ابتليت به ، فأعطه ظاهرك ، وترحل عنه بقلبك ، وفارقه بسرك ، ولا تشغل به عما هو أولى بك .

واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لا يجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله عز وجل ، وانقطاعك عنه ، وضياع وقتك عليك ، وضعف عزيمتك ، وتفرق همك .

فإذا بليت بهذا — ولا بد لك منه — فعامل الله تعالى فيه ، واحتسب عليه ما أمكنك ، وتقرب إلى الله تعالى بمرضاته فيه ، واجعل اجتماعك به متجراً لك ، لا تجعله خسارة ، وكن معه كرجل سائر فى طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره ، فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به ، فتحمله ولا يحملك ، فإن أبى ولم يكن فى سيره مطمع ، فلا تقف معه بلا ركب الدرب ودعه ولا تلتفت إليه ، فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان ، فانج بقلبك ، وضن بيومك وليلتك ، لا تغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة ، فتؤخذ أو يطلع الفجر أنى لك بلحاقهم .

الخامسة والثلاثون : أن الذكر يسير العبد وهو فى فراشه ، وفى سوقه ، وفى حال صحته وسقمه ، وفى حال نعيمه ولذته ، وليس شىء يعم الأوقات والأحوال مثله ، حتى إنه يسير العبد وهو نائم على فراشه ، فيسبق القائم مع الغفلة ، فيصبح هذا النائم وقد قطع الركب وهو مستلق على فراشه ، ويصبح ذلك القائم الغافل فى ساقة الركب ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وحكى عن رجل من العباد : أنه نزل برجل ضيفاً ، فقام العابد ليله يصلى ، وذلك الرجل مستلق على فراشه ، فلما أصبحا قال له العابد : سبقك الركب ، أو كما قال ، فقال : ليس الشأن فيمن بات مسافراً وأصبح مع الركب ، الشأن فيمن بات على فراشه وأصبح قد قطع الركب .

وهذا ونحوه له محمل صحيح ، ومحمل فاسد ، فمن حكم على أن الراقد المضطجع على فراشه يسبق القائم القانت ، فهو باطل ، وإنما محمله أن هذا المستلق على فراشه علق قلبه بربه عز وجل ، وألصق حبة قلبه بالعرش ،

وبات قلبه يطوف حول العرش مع الملائكة ، قد غاب عن الدنيا ومن فيها ، وقد عاقه عن قيام الليل عائق من وجع أو برد يمنعه القيام ، أو خوف على نفسه من رؤية عدو يطلبه ، أو غير ذلك من الأعذار ، فهو مستلق على فراشه ، وفى قلبه ما الله تعالى به عليم .

وآخر قائم يصلى ويتلو ، وفى قلبه من الرياء والعجب ، وطلب الجاه والمحمدة عند الناس ، ما الله به عليم ، أو قلبه فى واد ، وجسمه فى واد ، فلا ريب أن ذلك الراقد يصبح وقد سبق هذا القائم بمراحل كثيرة ، فالعمل على القلوب ، لا على الأبدان ، والمعول على الساكن ، لا على الأطلال ، والاعتبار بالمحرك الأول ، فالذكر يثير العزم الساكن ، ويهيج الحب المتوارى ، ويبعث الطلب المبيت .

السادسة والثلاثون : أن الذكر نور للذاكر فى الدنيا ، ونور له فى قبره ، ونور له فى معاده ، يسعى بين يديه على الصراط ، فما استنارت القلوب والقبور بمثل ذكر الله تعالى .

قال الله تعالى : (أَوَمَنْ كَانَ ميْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلْنَا لَهُ نُورًا يمْشِى بهِ فى النَّاسِ كَمنْ مثَلُه فى الظُّلماتِ لَيْس بِخارِجٍ مِنْهَا)(١) .

فالأول هو المؤمن استنار بالإيمان بالله ومحبته ومعرفته وذكره ، والآخر هو الغافل عن الله تعالى ، المعرض عن ذكره ومحبته ، والشأن كل الشأن ، والفلاح كل الفلاح ، فى النور ، والشقاء كل الشقاء فى فواته .

ولهذا كان النبى ﷺ يبالغ فى سؤال ربه تبارك وتعالى حين يسأله أن يجعله فى لحمه ، وعظامه ، وعصبه ، وشعره ، وبشره ، وسمعه ، وبصره ، ومن فوقه ، ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله ، وخلفه ، وأمامه ، حتى يقول : «واجعلنى نوراً»(٢) فسأل ربه تبارك وتعالى

---

(١) الأنعام : ١٢٢ .

(٢) رواه مسلم رقم (٧٦٣) فى المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه .

أن يجعل النور فى ذراته الظاهرة والباطنة ، وأن يجعله محيطاً به من جميع جهاته ، وأن يجعل ذاته وجملته نوراً .

فدين الله عز وجل نور . وكتابه نور ، ورسوله نور ، وداره التى أعدها لأوليائه نور يتلألأ ، وهو تبارك وتعالى نور السموات والأرض ، ومن أسمائه النور ، وأشرقت الظلمات لنور وجهه .

وفى دعاء النبى ﷺ يوم الطائف : « أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك ، أو ينزل بى سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » (١) .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليل ولا نهار ، نور السماوات من نور وجهه ، ذكره عثمان الدارمى .

وقد قال تعالى : (وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها) (٢) .

فإذا جاء تبارك وتعالى يوم القيامة للفصل بين عباده ، وأشرقت بنوره الأرض ، وليس إشراقها يومئذ بشمس ولا قمر ، فإن الشمس تكور ، والقمر يخسف ، ويذهب نورهما ، وحجابه تبارك وتعالى النور .

قال أبو موسى الأشعرى : قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال : « إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل (عمل) النهار ، وعمل النهار قبل (عمل) الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » (٣) ثم قرأ :

---

(١) قال الزرقانى فى شرح « المواهب اللدنية » : أورده ابن إسحاق فى « السيرة » ورواه الطبرانى فى كتاب « الدعاء » . وكذا رواه فى « معجمه الكبير » عن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب قال : وهذا مرسل صحابى ، لأنه ولد بالحبشة فلم يدرك ما حدث به . وذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ٦/ ٣٥ ، ونسبه للطبرانى ، وقال : فيه محمد بن إسحاق ، وهو مدلس .

(٢) الزمر : ٦٩ .

(٣) رواه أحمد فى « المسند » ٤/ ٣٩٥ و ٤٠١ و ٤٠٥ . ومسلم رقم ١٧٩ فى الإيمان ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : إن الله لا ينام ، وابن ماجه رقم ١٩٥ و ١٩٦ فى المقدمة .

(أَنْ بُورِكَ مَنْ فِى النَّار ومَنْ حوْلَهَا)(١) .

فاستنارة ذلك الحجاب بنور وجهه ، ولو لاه لأحرقت سبحات وجهه ونوره ما انتهى إليه بصره .

ولهذا لما تجلى تبارك وتعالى للجبل ، وكشف من الحجاب شيئاً يسيراً . ساخ الجبل فى الأرض ، وتدكدك ، ولم يقم لربه تبارك وتعالى .

وهذا معنى قول ابن عباس فى قوله سبحانه وتعالى :

(لَاتُدْرِكُه الأَبْصارُ)(٢) .

قال : ذلك الله عز وجل ، إذا تجلى بنوره لم يقم له شىء .

وهذا من بديع فهمه رضى الله تعالى عنه ، ودقيق فطنته ، كيف وقد دعا له رسول الله ﷺ أن يعلمه الله التأويل ،فالرب تبارك وتعالى يرى يوم القيامة بالأبصار عياناً ، ولكن يستحيل إدراك الأبصار له . وإن رأته فالإدراك أمر وراء الرؤية ، وهذه الشمس — ولله المثل الأعلى — نراها ولا ندركها كما هى عليه ، ولا قريباً من ذلك ، ولذلك قال ابن عباس لمن سأله عن الرؤية وأورد عليه *(لا تدركه الأبصار)* فقال : ألست ترى السماء؟ قال : بلى ، قال : أفتدركها ؟ قال : لا ، قال : فالله تعالى أعظم وأجل .

وقد ضرب سبحانه وتعالى النور فى قلب عبده مثلا لا يعقله إلا العالمون ، فقال سبحانه وتعالى :

(اللهُ نُورُ السَّموات والأَرضِ ، مثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْباحٌ : المِصْباحُ فى زُجاجةٍ ، الزُّجاجةُ كَأَنَّهَا كَوْكبٌ دُرِّىٌّ يُوقدُ مِنْ شَجرة مُباركَة زيْتُونَة لَاشَرْقِيَّة ولَا غَرْبِيَّةٍ يكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ ولَوْ لَمْ تَمْسسْهُ نارٌ ، نُورٌ علَى نُور ، يهْدِى اللهُ لِنُورِهِ منْ يشَاءُ ، ويَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ واللهُ بكُلِّ شَىْءٍ علِيمٌ)(٣) .

---

(١) النمـل : ٨ .
(٢) الأنعـام : ١٠٣ .
(٣) النور : ٣٥ .

قال أبي بن كعب : مثل نوره فى قلب المسلم .

وهذا هو النور الذى أودعه فى قلبه من معرفته ومحبته والإيمان به ، وذكره ، وهو نوره الذى أنزله إليهم ، فأحياهم به ، وجعلهم يمشون به بين الناس ، وأصله فى قلوبهم ، ثم تقوى مادته ، فتتزايد حتى يظهر على وجوههم وجوارحهم وأبدانهم ، بل وثيابهم ودورهم ، يبصره من هو من جنسهم ، وسائر الخلق له منكر ، فإذا كان يوم القيامة برز ذلك النور ، وصار بأيمانهم يسعى بين أيديهم فى ظلمة الجسر حتى يقطعوه ، وهم فيه على حسب قوته وضعفه فى قلوبهم فى الدنيا ، فمنهم من نوره كالشمس ، وآخر كالقمر ، وآخر كالنجوم ، وآخر كالسراج ، وآخر يعطى نوراً على إبهام قدمه ، يضيء مرة ، ويطفيء أخرى ، إذا كانت هذه حال نوره فى الدنيا ، فأعطى على الجسر بمقدار ذلك ، بل هو نفس نوره ظهر له عياناً ، ولما لم يكن للمنافق نور ثابت فى الدنيا ، بل كان نوره ظاهراً ، لا باطناً ، أعطى نوراً ظاهراً مآله إلى الظلمة والذهاب .

وضرب الله عز وجل لهذا النور ، ومحله ، وحامله ، ومادته مثلا بالمشكاة ، وهى الكوة ، فى الحائط ، فهى مثل الصدر ، وفى تلك المشكاة زجاجة من أصفى الزجاج ، وحتى شبهت بالكوكب الدرى فى بياضه وصفائه ، وهى مثل القلب ، وشبه بالزجاجة لأنها جمعت أوصافاً هى فى قلب المؤمن ، وهى : الصفاء ، والرقة ، والصلابة ، فيرى الحق والهدى بصفائه ، وتحصل منه الرأفة والرحمة ، والشفقة برقته ، ويجاهد أعداء الله تعالى ، ويغلظ عليهم ، ويشتد فى الحق ، ويصلب فيه بصلابته ، ولا تبطل صفة منه صفة أخرى ، ولا تعارضها ، بل تساعدها وتعاضدها .

(أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحماءُ بَيْنَهُمْ)(١) .

وقال تعالى :

(فَبِما رحْمةٍ مِن اللهِ لِنْتَ لَهُم ، ولَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حوْلِكَ)(٢) .

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) آل عمران : ١٥٩ .

وقال تعالى :

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقِين واغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (١) .

وفى أثر : «القلوب آنية الله تعالى فى أرضه ، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها» .

وبإزاء هذا القلب قلبان مذمومان فى طرفى نقيض . أحدهما : قلب حجرى قاس لا رحمة فيه ، ولا إحسان ولا بر ، ولا له صفاء يرى به الحق ، بل هو جبار جاهل ، لا علم له بالحق ، ولا رحمة للخلق . وبإزائه قلب ضعيف مائى ، لا قوة فيه ، ولا استمساك ، بل يقبل كل صورة ، وليس له قوة حفظ تلك الصور ، ولا قوة التأثير فى غيره ، وكل ما خالطه أثر فيه ، من قوى وضعيف ، وطيب وخبيث . وفى الزجاجة مصباح ، وهو النور الذى فى الفتيلة ، وهى حاملته ، ولذلك النور مادة ، وهو زيت قد عصر من زيتونة فى أعدل الأماكن تصيبها الشمس أول النهار وآخره ، فزيتها من أصفى الزيت وأبعده من الكدر ، حتى إنه ليكاد من صفائه يضىء بلا نار ، فهذه مادة نور المصباح .

وكذلك مادة نور المصباح الذى فى قلب المؤمن ، هو من شجرة الوحى التى هى أعظم الأشياء بركة ، وأبعدها من الانحراف ، بل هى أوسط الأمور وأعدلها وأفضلها ، لم تنحرف انحراف النصرانية ، ولاانحراف اليهودية ، بل هى وسط بين الطرفين المذمومين فى كل شىء ، فهذه مادة مصباح الإيمان فى قلب المؤمن .

ولما كان ذلك الزيت قد اشتد صفاؤه حتى كاد أن يضىء بنفسه ، ثم خالط النار ، فاشتدت بها إضاءته ، وقويت مادة ضوء النار به ، كان ذلك نوراً على نور .

وهكذا المؤمن قلبه مضىء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحى ، فباشرت قلبه ، وخالطت

---

(١) التوبة : ٧٣ .

بشاشته ، فازداد نوراً بالوحى على نوره الذى فطره الله تعالى عليه ، فاجتمع له نور الوحى إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فيكاد ينطق بالحق وإن لم يسمع فيه أثراً ، ثم يسمع الأثر مطابقاً لما شهدت به فطرته ، فيكون نوراً على نور ، فهذا شأن المؤمن يدرك الحق بفطرته مجملا ، ثم يسمع الأثر جاء به مفصلا ، فينشأ إيمانه عن شهادة الوحى والفطرة .

فليتأمل اللبيب هذه الآية العظيمة ، ومطابقتها لهذه المعانى الشريفة ، فذكر سبحانه وتعالى نوره فى السموات والأرض ، ونوره فى قلوب عباده المؤمنين ، النور المعقول المشهود بالبصائر والقلوب ، والنور المحسوس المشهود بالأبصار الذى استنارت به أقطار العالم العلوى والسفلى ، فهما نوران عظيمان ، أحدهما أعظم من الآخر ، وكما أنه إذا فقد أحدهما من مكان أو موضع ، لم يعش فيه آدمى ولا غيره ، لأن الحيوان إنما يتكون حيث النور ، ومواضع الظلمة التى لا يشرق عليها نور ، لا يعيش فيها حيوان ، ولا يتكون ألبتة ، فكذلك أمة فقد فيها نور الوحى والإيمان ، وقلب فقد منه هذا النور ميت ولابد ، لا حياة له ألبتة ، كما لا حياة للحيوان فى مكان لا نور فيه .

والله سبحانه وتعالى يقرن بين الحياة والنور ، كما فى قوله عز وجل :

(أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وجعلْنا لَهُ نُورًا يمشِى بهِ فى النَّاسِ كَمنْ مثَلُه فى الظُّلُماتِ لَيْس بِخَارجٍ مِنْهَا)(١) .

وكذلك قوله عز وجل :

(وكَذَلكَ أَوْحيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ماكُنْتَ تَدْرِى ما الكِتَابُ ولَا الإِيمانُ ، ولكِنْ جعلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بهِ منْ نَشَاءُ مِنْ عِبادِنَا)(٢) .

وقد قيل : إن الضمير فى (جعلناه) عائد إلى الأمر ، وقيل : إلى الكتاب ، وقيل : إلى الإيمان ، والصواب : أنه عائد إلى الروح أى : جعلنا

---

(١) الأنعام : ١٢٢

(٢) الشورى : ٥٢ .

ذلك الروح الذى أوحيناه إليك نوراً ، فسماه روحاً لما يحصل به من الحياة ، وجعله نوراً لما يحصل به من الإشراق والإضاءة ، وهما متلازمان ، فحيث وجدت هذه الحياة بهذا الروح ، وجدت الإضاءة والاستنارة ، وحيث وجدت الاستنارة والإضاءة ، وجدت الحياة ، فمن لم يقبل قلبه هذا الروح ، فهو ميت مظلم ، كما أن من فارق بدنه روح الحياة فهو هالك مضمحل ...

فلهذا يضرب سبحانه وتعالى المثلين : المائى والنارى معاً ، لما يحصل بالماء من الحياة ، وبالنار من الإشراق والنور ، كما ضرب ذلك فى أول سورة البقرة فى قوله تعالى :

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَد نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ ماحوْلَهُ ذَهبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَركَهُمْ فى ظُلُماتٍ لَايُبْصِرُونَ)(١) .

وقال : (ذهب الله بنورهم) ولم يقل : بنارهم . لأن النار فيها الإحراق والإشراق ، فذهب بما فيه الإضاءة والإشراق ، وأبقى عليهم ما فيه الأذى والإحراق .

وكذلك حال المنافقين : ذهب نور إيمانهم بالنفاق ، وبقى فى قلوبهم حرارة الكفر والشكوك والشبهات تغلى فى قلوبهم ، وقلوبهم قد صليت بحرها وأذاها وسمومها ووهجها فى الدنيا ، فأصلاها الله تعالى إياها يوم القيامة ناراً موقدة تطلع على الأفئدة ..

فهذا مثل من لم يصحبه نور الإيمان فى الدنيا ، بل خرج منه وفارقه بعد أن استضاء به ، وهو حال المنافق عرف ثم أنكر ، وأقر ثم جحد ، فهو فى ظلمات أصم أبكم أعمى ، كما قال تعالى فى حق إخوانهم من الكفار :

(والَّذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وبُكْمٌ فى الظُّلُماتِ)(٢) .

وقال تعالى:(ومَثَلُ الَّذين كَفَرُوا كَمثَلِ الَّذى ينْعِقُ بِمَالَايَسْمَعُ إِلَادُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهُمْ لَايَعْقِلُون)(٣) .

---

(١) البقرة : ١٧ .
(٢) الأنعام : ٣٩ .
(٣) البقرة : ١٧١ .

وشبه تعالى حال المنافقين فى خروجهم من النور بعد أن أضاء لهم بحال مستوقد النار وذهاب نورها عنه بعد أن أضاءت ما حوله ، لأن المنافقين بمخالطتهم المسلمين وصلاتهم معهم ، وصيامهم معهم ، وسماعهم القرآن ، ومشاهدتهم أعلام الإسلام ومناره ، قد شاهدوا الضوء ، ورأوا النور عياناً ، ولهذا قال تعالى فى حقهم :

(فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ) (١) .

لأنهم فارقوا الإسلام بعد أن تلبسوا به واستناروا ، فهم لا يرجعون إليه .

وقال تعالى فى حق الكفار (فهم لا يعقلون) لأنهم لم يعقلوا الإسلام ، ولا دخلوا فيه ، ولا استناروا به ، بل لا يزالون فى ظلمات الكفر ، صم بكم عمى ، فسبحان من جعل كلامه لأدواء الصدور شافياً ، وإلى الإيمان وحقائقه منادياً ، وإلى الحياة الأبدية والنعيم المقيم داعياً ، وإلى طريق الرشاد هادياً . لقد أسمع منادى الإيمان لو صادف آذاناً واعية ، وشفت مواعظ القرآن لو وافقت قلوباً خالية ، ولكن عصفت على القلوب أهوية الشبهات والشهوات ، فأطفأت مصابيحها ، وتمكنت منها أيدى الغفلة والجهالة ، فأغلقت أبواب رشدها ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها ، فلم ينفع فيها الكلام ، وسكرت بشهوات الغى وشهادة الباطل ، فلم تصغ بعده إلى الملام ، ووعظت بمواعظ أنكى فيها من الأسنة والسهام ، ولكن ماتت فى بحر الجهل والغفلة وأسر الهوى والشهوة ، و « ما لجرح بميت إيلام »

والمثل الثانى المائى قوله تعالى :

(أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ) (٢) .

الصيب : المطر الذى يصوب من السماء ، أى : ينزل منها بسرعة ، وهو مثل القرآن الذى به حياة القلوب ، كالمطر الذى به حياة الأرض والنبات

(١) البقرة : ١٨ .
(٢) البقرة : ١٩ .

والحيوان . فأدرك المؤمنون ذلك منه ، وعلموا ما يحصل به من الحياة التى لا خطر لها ، فلم يمنعهم منها ما فيه من الرعد والبرق ، وهو الوعيد والتهديد ، والعقوبات والمثلات التى حذر الله بها من خالف أمره ، وأخبر أنه منزلها بمن كذب رسول الله ﷺ ، أو ما فيه من الأوامر الشديدة ، كجهاد الأعداء ، والصبر على الأمر ، أو الأوامر الشاقة على النفوس التى هى بخلاف إرادتها ، فهى كالظلمات والرعد والبرق ، ولكن من علم مواقع الغيث وما يحصل به من الحياة لم يستوحش لما معه من الظلمة والرعد والبرق ، بل يستأنس لذلك ، ويفرح به لما يرجو من الحياة والخصب .

وأما المنافق ، فإنه عمى قلبه ، لم يجاوز بصره الظلمة ، ولم ير إلا برقاً يكاد يخطف البصر ، ورعداً عظيماً وظلمة ، فاستوحش من ذلك وخاف منه ، فوضع أصابعه فى أذنيه لئلا يسمع صوت الرعد ، وهاله مشاهدة ذلك البرق ، وشدة لمعانه ، وعظم نوره ، فهو خائف أن يختطف معه بصره ، لأن بصره أضعف أن يثبت معه ، فهو فى ظلمة يسمع أصوات الرعد القاصف ، ويرى ذلك البرق الخاطف ، فإن أضاء له ما بين يديه مشى فى ضوئه ، وإن فقد الضوء قام متحيراً لا يدرى أين يذهب ، ولجهله لا يعلم أن ذلك من لوازم الصيب الذى به حياة الأرض والنبات ، وحياته هو فى نفسه ، بل لا يدرك إلا رعداً ، وبرقاً ، وظلمة ، ولا شعور له بما وراء ذلك ، فالوحشة لازمة له ، والرعب والفزع لا يفارقه .

وأما من أنس بالصيب ، وعلم أنه لا بد فيه من رعد وبرق وظلمة بسبب الغيم ، استأنس بذلك ولم يستوحش منه ، ولم يقطعه ذلك عن أخذه بنصيبه من الصيب .

فهذا مثل مطابق للصيب الذى نزل به جبريل ﷺ من عند رب العالمين تبارك وتعالى على قلب رسول الله ﷺ ليحيي به القلوب والوجود أجمع ، اقتضت حكمته أن يقارنه من الغيم والرعد والبرق ما يقارن الصيب من الماء حكمة بالغة وأسباباً منتظمة نظمها العزيز الحكيم .

فكان حظ المنافق من ذلك الصيب سحابه ورعوده وبروقه فقط ، لم يعلم ما وراءه ، فاستوحش بما أنس به المؤمنون ، وارتاب بما اطمأن به

العالمون ، وشك فيما تيقنه المبصرون العارفون ، فبصره فى المثل النارى كبصر الخفاش نحو الظهيرة ، وسمعه فى المثل المائى كسمع من يموت من صوت الرعد.

وقد ذكر عن بعض الحيوانات أنها تموت من سمع الرعد ، وإذا صادف هذه العقول والأسماع والأبصار شبهات شيطانية ، وخيالات فاسدة ، وظنون كاذبة ، جالت فيها وصالت ، وقامت بها وقعدت ، واتسع فيها مجالها ، وكثر بها قيلها وقالها ، فملأت الأسماع من هذيانها ، والأرض من دواوينها ، وما أكثر المستجيبين لهؤلاء ، والقابلين منهم ، والقائمين بدعوتهم ، والمحامين عن حوزتهم ، والمقاتلين تحت ألويتهم ، والمكثرين لسوادهم .

ولعموم البلية بهم ، وضرر القلوب بكلامهم ، هتك الله أستارهم فى كتابه غاية الهتك ، وكشف أسرارهم غاية الكشف ، وبين علاماتهم وأعمالهم وأقوالهم ، ولم يزل عز وجل يقول : (ومنهم . . . ومنهم . . . ومنهم . . .) حتى انكشف أمرهم ، وبانت حقائقهم ، وظهرت أسرارهم .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى فى أول سورة البقرة أوصاف المؤمنين والكفار والمنافقين ، فذكر فى أوصاف المؤمنين ثلاث آيات ، وفى أوصاف الكفار آيتين ، وفى أوصاف هؤلاء بضع عشرة آية ، لعموم الابتلاء بهم وشدة المصيبة بمخالطتهم فإنهم من الجلدة مظهرون الموافقة والمناصرة ، بخلاف الكافر الذى قد تأبد بالعداوة ، وأظهر السريرة ، ودعاك بما أظهره إلى مزايلته ومفارقته .

ونظير هذين المثلين المثلان المذكوران فى سورة الرعد فى قوله تعالى :

(أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)(١) .

فهذا هو المثل المائى ، شبه الوحى الذى أنزله بحياة القلوب ، بالماء الذى أنزله من السماء . وشبه القلوب الحاملة له ، بالأودية الحاملة للسيل .

---

(١) الرعد : ١٧ .

فقلب كبير يسع علماً عظيماً ، كواد كبير يسع ماء كثيراً ، وقلب صغير كواد صغير يسع علماً قليلا ، فحملت القلوب من هذا العلم بقدرها ، كما سالت الأودية بقدرها .

ولما كانت الأودية ومجارى السيول فيها الغثاء ونحوه مما يمر عليه السيل ، فيحتمله السيل فيطفو على وجه الماء زبداً عالياً ، يمر عليه متراكباً ، ولكن تحته الماء الفرات الذى به حياة الأرض ، فيقذف الوادى ذلك الغثاء إلى جنبتيه حتى لا يبقى منه شىء ، ويبقى الماء الذى تحت الغثاء يسقى الله تعالى به الأرض ، فيحيي به البلاد والعباد ، والشجر والدواب ، والغثاء يذهب جفاء يجفى ، ويطرح على شفير الوادى .

فكذلك العلم والإيمان الذى أنزله فى القلوب فاحتملته، فأثار منها بسبب مخالطته لها ما فيها من غثاء الشهوات وزبد الشبهات الباطلة ، يطفو فى أعلاها ، واستقر العلم والإيمان والهدى فى جذر القلب، فلا يزال ذلك الغثاء والزبد يذهب جفاء ، ويزول شيئاً فشيئاً ، حتى يزول كله ، ويبقى العلم النافع والإيمان الخالص فى جذر القلب يرده الناس ، فيشربون ويسقون ويمرعون .

وفى « الصحيح » من حديث أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « مثل ما بعثنى الله تعالى به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة ، قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان ، لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه (فى) دين الله تعالى ، ونفعه بما بعثنى الله به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (١)

فجعل النبى ﷺ الناس بالنسبة إلى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهم الذين قاموا بالدين علماً وعملا ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله ﷺ

---

(١) رواه البخارى ١/١٦٠ و ١٦١ فى العلم ، باب فضل من علم وعلم ، ومسلم رقم ٢٢٨٢ فى الفضائل ، باب بيان مثل ما بعث النبى صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم .

فهؤلاء أتباع الرسل - صلوات الله عليهم وسلامه - حقاً ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، فقبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها .

وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة ، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء صلى الله عليهم وسلم الذين قال الله تعالى فيهم :

(واذْكُرْ عِبَادَنا إبْراهيمَ وإسْحَاقَ ويَعْقُوبَ أُولى الأَيْدِى والأَبْصار) (١)

أى : البصائر فى دين الله عز وجل ، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه ، فهذه الطبقة كان لها قوة الحفظ والفهم فى الدين والبصر بالتأويل : ففجرت من النصوص أنهار العلوم ، واستنبطت منها كنوزها ، ورزقت فيها فهماً خاصاً ، كما قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب وقد سئل : هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه (٢) .

فهذا الفهم هو بمنزلة الكلأ والعشب الكثير الذى أنبتته الأرض ، وهو الذى تميزت به هذه الطبقة عن الطبقة الثانية ، فإنها حفظت النصوص ، وكان همها حفظها وضبطها ، فوردها الناس وتلقوها منهم ، فاستنبطوا منها ، واستخرجوا كنوزها ، واتجروا فيها ، وبذروها فى أرض قابلة للزرع والنبات ، ووردوها كل بحسبه .

(قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ) (٣) .

وهؤلاء هم الذين قال فيهم النبى ﷺ : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها كما سمعها ، فرب حامل فقه غير فقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » (٤) .

---

(١) ص : ٤٥ .

(٢) رواه البخارى فى جملة حديث طويل ١٢ / ٢١٧ فى الديات باب العاقلة .

(٣) البقرة : ٦٠ .

(٤) رواه أحمد فى « المسند » ٤/ ٨٠ و ٨٢ ، وابن ماجه رقم (٣٠٥٦) فى المناسك ، =

وهذا عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن ، مقدار ما سمع من النبي ﷺ لم يبلغ نحو العشرين حديثاً الذى يقول فيه : سمعت ، ورأيت وسمع الكثير من الصحابة ، وبورك فى فهمه والاستنباط منه حتى ملأ الدنيا علماً وفقها .

قال أبو محمد بن حزم : وجمعت فتاويه فى سبعة أسفار كبار ، وهى بحسب ما بلغ جامعها ، وإلا فعلم ابن عباس كالبحر ، وفقهه واستنباطه وفهمه فى القرآن بالموضع الذى فاق به الناس ، وقد سمع كما سمعوا ، وحفظ القرآن كما حفظوا ، ولكن أرضه كانت من أطيب الأراضى وأقبلها للزرع ، فبذر فيها النصوص ، فأنبتت من كل زوج كريم :

(ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ)(١) .

وأين تقع فتاوى ابن عباس ، وتفسيره ، واستنباطه ، من فتاوى أبى هريرة وتفسيره ؟ وأبو هريرة أحفظ منه ، بل هو حافظ الأمة على الاطلاق : يؤدى الحديث كما سمعه ، ويدرسه بالليل درساً ، فكانت همته مصروفة إلى الحفظ وتبليغ ما حفظه كما سمعه ، وهمة ابن عباس مصروفة إلى التفقه والاستنباط ، وتفجير النصوص ، وشق الأنهار منها ، واستخراج كنوزها .

وهكذا الناس بعده قسمان :

قسم حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ ، والأداء ، كما سمعوا ، ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

وقسم معتنون بالاستنباط واستخراج الأحكام من النصوص ، والتفقه فيها .

= باب الخطبة يوم النحر ، والحاكم ١/٨٧ وصححه ووافقه الذهبى من حديث جبير بن مطعم ، ورواه أيضاً أحمد فى « المسند » ٥/١٨٣ . والترمذى رقم ٢٦٥٨ فى العلم ، باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع ، وأبو داود رقم ٣٦٦٠ فى العلم ، باب فضل نشر العلم ، وابن حبان رقم ٧٢ « موارد » من حديث زيد بن ثابت . ورواه أيضاً أحمد فى « المسند » ٣/٢٢٥ من حديث أنس ، وهو حديث صحيح .

(١) الجمعة : ٤ .

فالأول كأبي زرعة ، وأبي حاتم ، وابن دارة .

وقبلهم : كبندار محمد بن بشار ، وعمرو الناقد ، وعبد الرزاق .

وقبلهم : كمحمد بن جعفر غندر ، وسعيد بن أبي عروبة ، وغيرهم من أهل الحفظ والاتقان والضبط لما سمعوه من غير استنباط وتصرف ، واستخراج الأحكام من ألفاظ النصوص .

والقسم الثاني : كمالك ، والشافعي ، والأوزاعي ، وإسحاق والإمام أحمد بن حنبل ، والبخاري ، وأبي داود ، ومحمد بن نصر المروزي ، وأمثالهم ممن جمع الاستنباط والفقه إلى الرواية ، فهاتان الطائفتان هما أسعد الخلق بما بعث الله تعالى به رسوله ﷺ ، وهم الذين قبلوه ورفعوا به رأساً .

وأما الطائفة الثالثة : وهم أشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأساً ، فلا حفظ ، ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية .

فالطبقة الأولى : أهل رواية ودراية .

والطبقة الثانية : أهل رواية ورعاية ، ولهم نصيب من الدراية ، بل حظهم من الرواية أوفر .

والطبقة الثالثة : الأشقياء ، لا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية .

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(١) .

فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار ، إن هم أحدهم إلا بطنه وفرجه ، فإن ترقت همته كان همه — مع ذلك — لباسه وزينته ، فإن ترقت همته فوق ذلك كانت في الرياسة والانتصار للنفس الغضبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الغضبية ، كان همه في نصرة النفس الكلبية ، فلم يعطها ، إلى نصرة النفس السبعية ، فلم يعطها أحد من هؤلاء فإن النفوس كلبية وسبعية وملكية .

فالكلبية : تقنع بالعظم ، والكسرة ، والجيفة ، والعذرة .

---

(١) الفرقان : ٤٤ .

والسبعية : لا تقنع بذلك ، بل بقهر النفوس ، تريد الاستعلاء عليها بالحق والباطل .

وأما الملكية : فقد ارتفعت عن ذلك . وشمرت إلى الرفيق الأعلى ، فهمتها العلم والإيمان ، ومحبة الله تعالى ، والإنابة إليه ، والطمأنينة به ، والسكون إليه . وإيثار محبته ومرضاته ، وإنما تأخذ من الدنيا ما تأخذ لتستعين به على الوصول إلى فاطرها وربها ووليها ، لا لتنقطع به عنه .

ثم ضرب سبحانه وتعالى مثلا ثانياً ، وهو المثل النارى ، فقال :

(وَمِمَّا يُوقِدُون عَلَيْهِ فِى النَّارِ إبْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ) (١) .

وهذا كالحديد والنحاس ، والفضة والذهب وغيرها ، فإنها تدخل الكير لتمحص وتخلص من الخبث فيخرج خبثها فيرمى به ويطرح ، ويبقى خالصها ، فهو الذى ينفع الناس .

ولما ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلين ذكر حكم من استجاب له ، ورفع بهداه رأساً ، وحكم من لم يستجب له ، ولم يرفع بهداه رأساً ، فقال :

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِى الأَرْض جَمِيعًا وَمِثْلَهُ معهُ لافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الحِسابِ ، ومأْواهُمْ جهَنَّمُ وبِئْس المِهَادُ) (٢) .

والمقصود أن الله تعالى جعل الحياة حيث النور ، والموت حيث الظلمة فحياة الوجودين ، الروحى والجسمى بالنور ، وهو مادة الحياة ، كما أنه مادة الإضاءة ، فلا حياة بدونه ، كما لا إضاءة بدونه ، وكما أنه به حياة القلب ، فيه انفساحه وانشراحه وسعته ، كما فى الترمذى عن النبى ﷺ : « إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح » قالوا : وما علامة ذلك ؟ قال :

---

(١) الرعد : ١٧ .
(٢) الرعد : ١٨ .

« الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله » (١) .

ونور العبد هو الذى يصعد عمله وكلمه إلى الله تعالى ، فإن الله تعالى لا يصعد إليه من الكلم إلا الطيب ، وهو نور ومصدر عن النور ، ولا من العمل إلا الصالح ، ولا من الأرواح إلا الطيبة ، وهى أرواح المؤمنين التى استنارت بالنور الذى أنزله على رسوله ﷺ والملائكة الذين خلقوا من نور ، كما فى « صحيح مسلم » ، عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلقت الشياطين من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم » (٢) .

فلما كانت مادة الملائكة من نور ، كانوا هم الذين يعرجون إلى ربهم تبارك وتعالى . وكذلك أرواح المؤمنين هى التى تعرج إلى ربها وقت قبض الملائكة لها ، فيفتح لها باب السماء الدنيا ، ثم الثانية ، ثم الثالثة ، ثم الرابعة ، إلى أن ينتهى بها إلى السماء السابعة ، فتوقف بين يدى الله عز وجل ، ثم يأمر أن يكتب كتابه فى أهل عليين .

فلما كانت هذه الروح روحاً زاكية طيبة نيرة مشرقة صعدت إلى الله عز وجل مع الملائكة .

وأما الروح المظلمة الخبيثة الكدرة ، فإنها لا تفتح لها أبواب السماء ، ولا تصعد إلى الله تعالى ، بل ترد من السماء الدنيا إلى عالمها وتحتقرها ، لأنها أرضية سفلية ، والأولى علوية سماوية ، فرجعت كل روح إلى عنصرها وما هى منه ، وهذا مبين فى حديث البراء بن عازب الطويل الذى رواه

(١) وهو حديث ضعيف ، ذكره الحكيم الترمذى فى « نوادر الأصول » صفحة ١٢٥ و ١٢٦ من حديث ابن عمر بغير سند ، وقد رواه أبو نعيم فى « أخبار أصبهان » ١ / ٣٠٥ فى ترجمة خالد بن أبى كريمة ، من حديث خالد بن أبى كريمة عن عبد الله بن المسور عن أبيه وإسناده منقطع ، وعبد الله بن المسور ، قال الذهبى فى « الميزان » : قال أحمد وغيره : أحاديثه موضوعة ، وذكره البغوى فى « تفسيره » من حديث عبد الله بن مسعود ، وإسناده ضعيف جداً ورواه ابن جرير ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر عن قتادة مرسلا .

(٢) رواه مسلم رقم (٢٩٩٦) فى الزهد ، باب فى أحاديث متفرقة .

الإمام أحمد ، وأبو عوانة الاسفراييني فى « صحيحه » ، والحاكم وغيرهم وهو حديث صحيح (١) .

والمقصود : أن الله عز وجل لا يصعد إليه من الأعمال والأقوال والأرواح إلا ما كان منها نوراً ، وأعظم الخلق نوراً أقربهم إليه وأكرمهم عليه

وفى « المسند » من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ : « إن الله تعالى خلق خلقه فى ظلمة ، وألقى عليهم من نوره ، فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول : جف القلم على علم الله تعالى » (٢) .

وهذا الحديث العظيم أصل من أصول الإيمان ، وينفتح به باب عظيم من أبواب سر القدر وحكمته ، والله تعالى الموفــق .

وهذا النور الذى ألقاه عليهم سبحانه وتعالى ، هو الذى أحياهم وهداهم ، فأصابت الفطره منه حظها ، ولكن لما لم يستقل بتمامه وكماله ، أكمله لهم ، وأتمه بالروح الذى ألقاه على رسله عليهم الصلاة والسلام ، والنور الذى أوحاه إليهم ، فأدركته الفطرة بذلك النور السابق الذى حصل لها يوم إلقاء النور ، فانضاف نور الوحي والنبوة إلى نور الفطرة ، نور على نور ، فأشرقت منه القلوب ، واستنارت به الوجوه ، وحيت به الأرواح ، وأذعنت به الجوارح للطاعات طوعاً واختياراً ، فإزدادت به القلوب حياة إلى حياتها .

ثم دلها ذلك النور على نور آخر هو أعظم منه وأجل ، وهو نور الصفات العليا الذى يضمحل فيه كل نور سواه ، فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المرئيات إلى العين ، ذلك لاستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الإيمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن تبارك وتعالى بارزاً ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى فى كتابه ، وكما أخبر به عنه رسوله ﷺ ، يدبر أمر الممالك ، ويأمر وينهى ، ويخلق

---

(١) رواه أحمد فى « المسند » ٤/٢٨٧ و٢٨٨و٢٩٥ و٢٩٦ . والحاكم ١/٣٧-٤٥ وهو حديث صحيح كما قال المؤلف .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » رقم ٦٦٤٤ و ٦٨٥٤ . والترمذى رقم ٢٦٤٤ فى الإيمان . باب ما جاء فى افتراق هذه الأمة والحاكم ١/٣١ وصححه ووافقه الذهبى .

ويرزق ، ويميت ويحيي ، ويقضي وينفذ ، ويعز ويذل ، ويقلب الليل والنهار ، ويداول الأيام بين الناس ، ويقلب الدول ، فيذهب بدولة ، ويأتي بأخرى .

والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعد إليه بالأمر ، ونازل من عنده به ، وأوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الآيات ، نافذة بحسب إرادته ، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء على الوجه الذي يشاء . من غير زيادة ولا نقصان ، ولا تقدم ولا تأخر ، وأمره وسلطانه نافذ في السموات وأقطارها ، في الأرض وما عليها وما تحتها ، وفي البحار والجو ، وفي سائر أجزاء العالم وذراته ، يقلبها ويصرفها ، ويحدث فيها ما يشاء ، وقد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، ووسع كل شيء رحمة وحكمة ، ووسع سمعه الأصوات ، فلا تختلف عليه ولا تشتبه عليه ، بل يسمع ضجيجها باختلاف لغاتها على كثرة حاجاتها ، لا يشغله سمع عن سمع ، ولا تغلطه كثرة المسائل ، ولا يتبرم بالحاح ذوي الحاجات ، وأحاط بصره بجميع المرئيات ، فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فالغيب عنده شهادة ، والسر عنده علانية ، يعلم السر وأخفى من السر .

فالسر ما انطوى عليه ضمير العبد ، وخطر بقلبه ، ولم تتحرك به شفتاه ، وأخفى منه : ما لم يخطر بعد ، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا في وقت كذا وكذا ، له الخلق والأمر ، وله الملك والحمد، وله الدنيا والآخرة، وله النعمة ، وله الفضل ، وله الثناء الحسن ، له الملك كله ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، شملت قدرته كل شيء ووسعت رحمته كل شيء ، وسعت نعمته إلى كل حي .

(يَسْأَلُه منْ في السَّمٰواتِ والأَرْضِ كُلَّ يوْمٍ هُو في شَأْنٍ)(١) .

يغفر ذنباً ، ويفرج هماً ، ويكشف كرباً ، ويجبر كسيراً ، ويغني فقيراً ، ويعلم جاهلا ، ويهدي ضالا ، ويرشد حيران ، ويغيث لهفان ،

---

(١) الرحمن : ٢٩ .

ويفك عانيا ، ويشبع جائعاً ، ويكسو عارياً ، ويشفى مريضاً ، ويعافى مبتلى ، ويقبل تائباً ، ويجزى محسناً ، وينصر مظلوماً ، ويقصم جباراً ، ويقيل عثرة ، ويستر عورة ، ويؤمن روعة ، ويرفع أقواماً ، ويضع آخرين ، لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه ، يمينه ملأى ، لا تغيضها نفقة ، سحاء الليل والنهار .

أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق ، فإنه لم يغض ما فى يمينه ، قلوب العباد ونواصيهم بيده ، وأزمة الأمور معقودة بقضائه وقدره ، الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه ، يقبض سمواته كلها بيده الكريمة ، والأرض باليد الأخرى ، ثم يهزهن ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الملك ، أنا الذى بدأت الدنيا ولم تكن شيئاً ، وأنا الذى أعيدها كما بدأتها ، لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها ، لو أن أهله سمواته ، وأهل أرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أتقى قلب رجل منهم ، ما زاد ذلك فى ملكه شيئاً ، ولو أن أول خلقه وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، كانوا على أفجر قلب رجل منهم ، ما نقص ذلك من ملكه شيئاً ، ولو أن أهل سمواته ، وأهل أرضه ، وإنسهم وجنهم ، وحيهم وميتهم ، ورطبهم ويابسهم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألوه ، فأعطى كلا منهم ما سأله ، ما نقص ذلك مما عنده مثقال ذرة ، ولو أن أشجار الأرض كلها — من حين وجدت إلى أن تنقضى الدنيا — أقلام ، والبحر وراءه سبعة أبحر تمده من بعده مداد ، فكتب بتلك الأقلام وذلك المداد ، لفنيت الأقلام ، ونفد المداد ، ولم تنفد كلمات الخالق تبارك وتعالى . وكيف تفنى كلماته جل جلاله وهى لا بداية لها ولا نهاية ، والمخلوق له بداية ونهاية ، فهو أحق بالفناء والنفاد ؟ وكيف يفنى المخلوق غير المخلوق ؟ هو الأول الذى ليس قبله شىء ، والآخر الذى ليس بعده شىء ، والظاهر الذى ليس فوقه شىء ، والباطن الذى ليس دونه شىء ، تبارك وتعالى ، أحق من ذكر ، وأحق من عبد ، وأحق من حمد ، وأولى من شكر ، وأنصر من ابتغى ،

وأرأف من ملك ، وأجود من سئل ، وأعفى من قدر ، وأكرم من قصد ، وأعدل من انتقم ، حلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن عزته ، ومنعه عن حكمته ، وموالاته عن إحسانه ورحمته .

ما لِلْعِبَــادِ عَلَيْهِ حقٌ واجِبٌ كَلَّا ولَا سعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ ، أَوْ نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِ ، وهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ

هو الملك لا شريك له ، والفرد فلا ند له ، والغنى فلا ظهير له ، والصمد فلا ولد له ، ولا صاحبة له ، والعلى فلا شبيه له ، ولا سمى له ، كل شيء هالك إلا وجهه ، وكل ملك زائل إلا ملكه ، وكل ظل قالص إلا ظله ، وكل فضل منقطع إلا فضله ، لن يطاع إلا بإذنه ورحمته ، ولن يعصى إلا بعلمه وحكمته ، يطاع فيشكر ، ويعصى فيتجاوز ويغفر ، كل نقمة منه عدل ، وكل نعمة منه فضل ، أقرب شهيد ، وأدنى حفيظ ، حال دون النفوس ، وأخذ بالنواصى ، وسجل الآثار ، وكتب الآجال ، فالقلوب له مفضية ، والسر عنده علانية ، والغيب عنده شهادة ، عطاؤه كلام ، وعذابه كلام :

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لهُ كُنْ فَيَكُون) (١) .

فإذا أشرقت على القلب أنوار هذه الصفات . اضمحل عندها كل نور ، ووراء هذا ما لا يخطر بالبال ، ولا تناله عبارة .

والمقصود : أن الذكر ينور القلب والوجه والأعضاء ، وهو نور العبد فى دنياه ، وفى البرزخ ، وفى القيامة ، وعلى حسب نور الإيمان فى قلب العبد ، تخرج أعماله وأقواله ، ولها نور وبرهان ، حتى إن من المؤمنين من يكون نور أعماله إذا صعدت إلى الله تبارك وتعالى كنور الشمس ، وهكذا نور روحه إذا قدم بها على الله عز وجل ، وهكذا يكون نوره الساعى بين يديه على الصراط ، وهكذا يكون نور وجهه فى القيامة ، والله تعالى المستعان وعليه الاتكال .

---

(١) يس : ٨٢ .

السابعة والثلاثون : أن الذكر رأس الأصول ، وطريق عامة الطائفة ، ومنشور الولاية ، فمن فتح له فيه فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل ، فليتطهر ، وليدخل على ربه عز وجل يجد عنده كل ما يريد ، فإن وجد ربه عز وجل وجد كل شيء ، وإن فاته ربه عز وجل فاته كل شيء .

الثامنة والثلاثون : فى القلب خلة وفاقة لا يسدها شيء ألبتة إلا ذكر الله عز وجل ، فإذا صار الذكر شعار القلب ، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة ، واللسان تبع له ، فهذا هو الذكر الذى يسد الخلة ، ويفنى الفاقة ، فيكون صاحبه غنياً بلا مال ، عزيزاً بلا عشيرة ، مهيباً بلا سلطان ، فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل ، فهو بضد ذلك ، فقير مع كثرة جدته ، ذليل مع سلطانه ، حقير مع كثرة عشيرته .

التاسعة والثلاثون : أن الذكر يجمع المتفرق ، ويفرق المجتمع ، ويقرب البعيد ، ويبعد القريب ، فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته ، وهمومه وعزومه ، والعذاب كل العذاب فى تفرقها وتشتتها عليه ، وانفراطها له ، والحياة والنعيم فى اجتماع قلبه وهمه ، وعزمه وإرادته ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم ، والغموم ، والأحزان ، والحسرات على فوت حظوظه ومطالبه ، ويفرق أيضاً ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره ، حتى تتساقط عنه وتتلاشى وتضمحل ،ويفرق أيضاً ما اجتمع على حربه من جند الشيطان ، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية ، وكلما كان أقوى طلباً لله سبحانه وتعالى ، وأمثل تعلقاً به وإرادة له ، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة ،بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة ،ولا سبيل إلى تفريق هذا الجمع إلا بدوام الذكر ، وإما تقريبه البعيد، فإنه يقرب إليه الآخرة التى يبعدها منه الشيطان والأمل ، فلا يزال بلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحصرها ، فحينئذ تصغر فى عينه الدنيا ، وتعظم فى قلبه الآخرة ، ويبعد القريب إليه وهى الدنيا التى هى أدنى إليه من الآخرة ، فإن الآخرة متى قربت من قلبه بعدت منه الدنيا ، كلما قربت منه هذه مرحلة بعدت منه هذه مرحلة ، ولا سبيل إلى هذا إلا بدوام الذكر .

الأربعون : أن الذكر ينبه القلب من نومه ، ويوقظه من سنته ،

والقلب إذا كان نائماً فاتته الأرباح والمتاجر ، وكان الغالب عليه الخسران ، فإذا استيقظ وعلم ما فاته فى نومته شد المئزر ، وأحيا بقية عمره ، واستدرك ما فاته ، ولا تحصل يقظته إلا بالذكر ، فإن الغفلة نوم ثقيل .

الحادية والأربعون : أن الذكر شجرة تثمر المعارف والأحوال التى شمر إليها السالكون ، فلا سبيل إلى نيل ثمارها إلا من شجرة الذكر ، وكلما عظمت تلك الشجرة ورسخ أصلها ، كان أعظم لثمرتها ، فالذكر يثمر المقامات كلها من اليقظة إلى التوحيد ، وهو أصل كل مقام ، وقاعدته التى ينبنى ذلك المقام عليها ، كما يبنى الحائط على أسه ، وكما يقوم السقف على حائطه ، وذلك أن العبد ان لم يستيقظ ، لم يمكنه قطع منازل السير ، ولا يستيقظ إلا بالذكر كما تقدم ، فالغفلة نوم القلب أو موته .

الثانية والأربعون : أن الذاكر قريب من مذكوره ، ومذكوره معه ، وهذه المعية معية خاصة غير معية العلم والإحاطة العامة ، فهى معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق ، كقوله تعالى :

(إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا) (١) .

(واللهُ مَعَ الصَّابِرِين) (٢) .

(وإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِين) (٣) .

(لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا) (٤) .

وللذاكر من هذه المعية نصيب وافر ، كما فى الحديث الإلهى « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » (٥)

---

(١) النحل : ١٢٨ .

(٢) البقرة : ٢٤٩ .

(٣) العنكبوت : ٦٩ .

(٤) التوبة : ٤٠ .

(٥) رواه البخارى تعليقاً ١٣/٤١٧ ، ورواه مسنداً أحمد ٢/٥٤٠ ، وابن ماجه رقم ٣٧٩٢ فى الأدب ، باب فضل الذكر ، وابن حبان رقم (٢٣١٦) « موارد » . والحاكم ١/٤٩٦ وصححه ووافقه الذهبي .

وفى أثر آخر : « أهل ذكرى أهل مجالسى ، وأهل شكرى أهل زيارتى ، وأهل طاعتى أهل كرامتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، إن تابوا فأنا حبيبهم ، فإنى أحب التوابين ، وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا ، فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب » .

والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شىء ، وهى أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقى ، وهى معية لا تدركها العبارة ، لا تنالها الصفة ، وإنما تعلم بالذوق ، وهى مزلة أقدام إن لم يصحب العبد فيها تمييز بين القديم والمحدث ، بين الرب والعبد ، بين الخالق والمخلوق ، بين العابد والمعبود ، وإلا وقع فى حلول يضاهى به النصارى ، أو اتحاد يضاهى به القائلين بوحدة الوجود ، وأن وجود الرب عين وجود هذه الموجودات ، بل ليس عندهم رب وعبد ، ولا خلق وحق ، بل الرب هو العبد ، والعبد هو الرب ، والخلق المشبه هو الحق المنزه ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً .

والمقصود : أنه إن لم يكن مع العبد عقيدة صحيحة ، وإلا فإذا استولى عليه سلطان الذكر ، وغاب بمذكوره عن ذكره وعن نفسه ، ولج فى باب الحلول والاتحاد ولابد .

الثالثة والأربعون : أن الذكر يعدل عتق الرقاب ، ونفقة الأموال ، والحمل على الخيل فى سبيل الله عز وجل ، ويعدل الضرب بالسيف فى سبيل الله عز وجل ، وقد تقدم أن من قال فى يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكتبت له مائة حسنة ، ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه حتى يمسى . . . الحديث (١) .

وذكر ابن أبى الدنيا ، عن الأعمش ، عن سالم بن أبى الجعد قال : قيل لأبى الدرداء : إن رجلا أعتق مائة نسمة . قال : إن مائة نسمة من مال رجل كثير ، وأفضل من ذلك إيمان ملزوم بالليل والنهار ، أن لا يزل لسان أحدكم رطباً من ذكر الله عز وجل (٢) .

---

(١) رواه ١١/١٦٨/١٦٩ فى الدعوات ومسلم ٢٦٩١ فى الذكر .

(٢) ذكره المنذرى فى «الترغيب والترهيب» ونسبه لابن أبى الدنيا وقال : هو موقوف بإسناد حسن.

وقال ابن مسعود : لأن أسبح الله تعالى تسبيحات أحب إلى من أن أنفق عددهن دنانير فى سبيل الله عز وجل .

وجليس عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن مسعود ، فقال عبد الله : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » أحب إلى من أن أنفق عددهن دنانير فى سبيل الله عز وجل ، فقال عبد الله بن عمرو : لأن أجد فى طريق ، فأقولهن ، أحب إلى من أن أحمل عددهن على الخيل فى سبيل الله عز وجل .

وقد تقدم حديث أبى الدرداء قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الورق والذهب ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : ذكر الله رواه ابن ماجه والترمذى ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد(١) .

الرابعة والأربعون : أن الذكر رأس الشكر ، فما شكر الله تعالى من لم يذكره .

وذكر البيهقى عن زيد بن أسلم ، أن موسى عليه السلام قال : رب قد أنعمت على كثيراً ، فدلنى على أن أشكرك كثيراً ، قال : اذكرنى كثيراً ، فإذا ذكرتنى كثيراً فقد شكرتنى كثيراً ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى .

وقد ذكر البيهقى أيضاً فى « شعب الإيمان » ، عن عبد الله بن سلام قال : قال موسى عليه السلام : يارب ، ما الشكر الذى ينبغى لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه أن لايزال لسانك رطباً من ذكرى ، قال : يارب إنى أكون على حال أجلك أن أذكرك فيها . قال : وما هى ؟ قال : أكون جنباً ، أو على الغائط ، أو إذا بلت . فقال : وإن كان . قال : يارب ،

= والفقرة الأخيرة منه ثبتت فى المرفوع فى حديث رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وغيرهم من حديث عبد الله بن بسر بلفظ : « لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله » .

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ١/٤٩٦ من حديث أبى الدرداء وصححه ووافقه الذهبى .

فما أقول ؟ قال : تقول : « سبحانك وبحمدك وجنبنى الأذى ، وسبحانك وبحمدك فقنى الأذى » .

قلت : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يذكر الله تعالى على كل أحيانه(١) . ولم تستثن حالة من حاله ، وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه تعالى فى حال طهارته وجنابته . وأما فى حال التخلى ، فلم يكن يشاهده أحد يحكى عنه ، ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلى وبعده ما يدل على مزيد الاعتناء بالذكر ، وأنه لا يخل به عند قضاء الحاجة وبعدها ، وكذلك شرع للأمة من الذكر عند الجماع أن يقول أحدهم : « بسم الله . اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا »(٢) . وأما عند نفس قضاء الحاجة ، وجماع الأهل ، فلا ريب أنه لا يكره بالقلب ، لأنه لا بد لقلبه من ذكر ، ولا يمكنه صرف قلبه عن ذكر من هو أحب شىء إليه ، فلو كلف القلب نسيانه لكان تكليفه بالمحال ، كما قال القائل :

يراد من القلب نسيانكم وتأبى الطباع على الناقل

فأما الذكر باللسان على هذه الحالة ، فليس مما شرع لنا ، ولا ندبنا إليه رسول الله ﷺ ، ولا نقل عن أحد من الصحابة رضى الله عنهم .

وقال عبد الله بن أبى الهذيل : إن الله تعالى ليحب أن يذكر فى السوق ، ويحب أن يذكر على كل حال ، إلا على الخلاء .

ويكفى فى هذه الحال استشعار الحياء ، والمراقبة ، والنعمة عليه فى هذه الحالة ، وهى من أجل الذكر ، فذكر كل حال بحسب ما يليق بها . واللائق بهذه الحال ، التقنع بثوب الحياء من الله تعالى ، وإجلاله ، وذكر

---

(١) رواه مسلم رقم (٣٧٣) فى الحيض ، باب ذكر الله تعالى فى حال الجنابة وغيرها .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » ١/٢١٧ و ٢٢٠ و ٢٤٣ ، ٢٨٣ و ٢٨٦ ، ورواه البخارى ٦/٢٤٠ فى بدء الخلق . باب صفة إبليس وجنوده . وفى الوضوء باب التسمية على كل حال وعند الوقاع . وفى النكاح . باب ما يقول إذا أتى أهله ، وفى التوحيد ، باب السؤال بأسماء الله تعالى ، ومسلم رقم ١٤٣٤ فى النكاح ، باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع . وأبو داود رقم ٢١٦١ فى النكاح ، فى باب جامع النكاح ، والترمذى رقم ١٦٩٢ فى النكاح ، باب ما يقول إذا دخل على أهله .

نعمته عليه ، وإحسانه إليه فى إخراج هذا العدو المؤذى له الذى لو بقى فيه لقتله . فالنعمة فى تيسير خروجه ، كالنعمة فى التغذى به .

وكان على بن أبى طالب إذا خرج من الخلاء ، مسح بطنه وقال : يا لها نعمة لو يعلم الناس قدرها .

وكان بعض السلف يقول : الحمد لله الذى أذاقنى لذته ، وأبقى فى منفعته ، وأذهب عنى مضرته(١) . وكذلك ذكره حال الجماع ذكر هذه النعمة التى من بها عليه ، وهى أجل نعم الدنيا . فإذا ذكر نعمة الله تعالى عليه بها ، هاج من قلبه هائج الشكر ، فالذكر رأس الشكر .

وقال النبى ﷺ لمعاذ : « والله يا معاذ إنى لأحبك ، فلا تنس أن تقول دبر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك ، وحسن عبادتك » (٢) .

فجمع بين الذكر والشكر ، كما جمع سبحانه وتعالى بينهما فى قوله تعالى : (فاذْكُرُونى أَذْكُرْكُم ، واشْكُرُوا لى ولَا تَكْفُرُون) (١) .

فالذكر والشكر جماع السعادة والفلاح .

الخامسة والأربعون : أن أكرم الخلق على الله تعالى من المتقين من لا يزال لسانه رطباً بذكره ، فإنه اتقاه فى أمره ونهيه ، وجعل ذكره شعاره .

فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار ، وهذا هو الثواب والأجر .

والذكر يوجب له القرب من الله عز وجل والزلفى لديه ، وهذه هى المنزلة .

---

(١) وورد بنحوه مرفوعاً ، ورواه ابن السنى من حديث ابن عمر ، وفى سنده ضعف وانقطاع . وله شواهد بمعناه ذكرها ابن علان فى « الفتوحات الربانية » ١/٤٠٥ .

(٢) رواه أبو داود رقم ١٥٢٢ فى الصلاة . باب الاستغفار ، والنسائى ٣/٥٣ فى السهو باب نوع آخر من الدعاء ، وإسناده صحيح . رواه أيضاً أحمد فى « المسند » والطبرانى فى الدعاء وابن حبان فى « صحيحه » .

(٣) البقرة : ١٥٢ .

وعمال الآخرة على قسمين : منهم من يعمل على الأجر والثواب ، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة ، فهو ينافس غيره فى الوسيلة والمنزلة عند الله تعالى ، ويسابق إلى القرب منه ، وقد ذكر الله تعالى النوعين فى سورة الحديد فى قول الله تعالى :

(إِنَّ المُصَّدِّقِينَ والمُصَّدِّقَاتِ وأَقْرَضُوا الله قَرْضًا حسنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُم أَجْرٌ كَرِيمٌ)(١) .

فهؤلاء أَصحاب الأُجور والثواب ، ثم قال :

(وَالَّذِينَ آمَنُوا باللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُون)(٢).

فهؤلاء أَصحاب المنزلة والقرب ثم قال :

(والشُّهَدَاءُ عِنْدَ ربِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ ونُورُهُمْ)(٢) .

فقيل : هذا عطف على الخبر من *(الذين آمنوا بالله ورسله)* ، أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون ، وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم ، ثم أخبر عنهم أن لهم أجراً ، وهو قوله تعالى: *(لهم أجرهم ونورهم)* ، فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور :

أنهم صديقون ، وشهداء . فهذه هى المرتبة والمنزلة . قيل : ثم الكلام عند قوله تعالى : *(الصديقون)* ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال :

(والشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهم لَهُمْ أَجْرُهُم ونُورُهُم)(٢) .

فيكون قد ذكر المتصدقون أهل البر والإحسان ، ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان فى قلوبهم وامتلأوا منه ، فهم الصديقون ، وهم أهل العلم والعمل ، والأولون أهل البر والإحسان ، ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم .

(١) الحديد : ١٨ .
(٢) الحديد : ١٩ .

ثم ذكر الشهداء ، وأنه تعالى يجرى عليهم رزقهم ونورهم ، لأنهم لما بذلوا أنفسهم لله تعالى أثابهم الله تعالى عليها ، أن جعلهم أحياء عنده يرزقون ، فيجرى عليهم رزقهم ونورهم ، فهؤلاء السعداء .

ثم ذكر الأشقياء فقال :

(والَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنا أُولئك أَصْحَابُ الجَحِيمِ)(١).

والمقصود : أنه سبحانه وتعالى ذكر أصحاب الأجور والمراتب ، وهذان الأمران هما اللذان وعدهما فرعون السحرة إن غلبوا موسى عليه الصلاة والسلام فقالوا :

(أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغَالِبِينَ * قَال نَعَمْ وإِنكُمْ «إِذًا» لَمِنَ المُقَرَّبِينَ)(٢) .

أى : أجمع لكم بين الأجر . والمنزلة عندى والقرب منى

فالعمال عملوا على الأجور ، والعارفون عملوا على المراتب والمنزلة والزلفى عند الله ، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك ، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء .

وذكر البيهقى عن محمد بن كعب القرظى رحمه الله تعالى قال : قال موسى عليه السلام : يارب ، أى خلقك أكرم عليك ؟ قال : الذى لا يزال لسانه رطباً بذكرى . قال : يارب ، فأى خلقك أعلم ؟ قال : الذى يلتمس إلى علمه علم غيره . قال : يارب ، أى خلقك أعدل ؟ قال : الذى يقضى على نفسه كما يقضى على الناس . قال : يارب أى خلقك أعظم ذنباً ؟ قال : الذى يتهمنى . قال : يارب ، وهل يتهمك أحد ؟ قال : الذى يستخيرنى ولا يرضى بقضائى .

وذكر أيضاً عن ابن عباس قال : لما وفد موسى عليه السلام إلى طور سيناء قال : يارب ، أى عبادك أحب إليك ؟ قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى .

(١) المائدة : ١٠ .
(٢) الشعراء : ٤١—٤٢ .

وقال كعب : قال موسى عليه السلام : يارب ، أقريب أنت فأناجيك أم بعيد فأناديك ؟ فقال تعالى : يا موسى ، أنا جليس من ذكرنى . قال : إنى أكون على حال أجلك عنها . قال ما هي يا موسى ؟ قال : عند الغائط والجنابة . قال : اذكرنى على كل حال .

وقال عبيد بن عمير : تسبيحة بحمد الله فى صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجرى معه ذهباً .

وقال الحسن : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : سيعلم الجمع من أولى بالكرم ، أين الذين كانت :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُم عَنِ المَضَاجِع يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطَمَعاً ومِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُون)(١) .

قال : فيقومون فيتخطون رقاب الناس . قال : ثم ينادى مناد : سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين الذين كانت :

(لَا تُلْهِيهِمْ تجَارَةٌ ولَا بَيْعٌ عن ذِكْرِ اللهِ)(٢) .

قال : فيقومون ، فيتخطون رقاب الناس ، قال : ثم ينادى مناد : وسيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم ، أين الحمادون لله على كل حال ؟ قال : فيقومون وهم كثير ، ثم يكون التنعيم والحساب فيمن بقى .

وأتى رجل أبا مسلم الخولانى فقال له : أوصنى يا أبا مسلم ، قال : أذكر الله تعالى تحت كل شجرة ومدرة ، فقال : زدنى ، فقال : اذكر الله تعالى حتى يحسبك الناس من ذكر الله تعالى مجنوناً ، قال : وكان أبو مسلم يكثر ذكر الله تعالى ، فرآه رجل وهو يذكر الله تعالى ، فقال : أمجنون صاحبكم هذا ؟ فسمعه أبو مسلم فقال : ليس هذا بالجنون يا ابن أخى ، ولكن هذا ذو الجنون .

السادسة والأربعون : أن فى القلب قسوة لايذيبها إلا ذكر الله تعالى ، فينبغى للعبد أن يداوى قسوة قلبه بذكر الله تعالى .

---

(١) السجدة : ١٦ . (٢) النور : ٣٧ .

وذكر حماد بن زيد ، عن المعلى بن زياد ، أن رجلا قال للحسن : يا أبا سعيد ، أشكو إليك قسوة قلبي ، قال : أذبه بالذكر . وهذا لأن القلب كلما اشتدت به الغفلة ، اشتدت به القسوة ، فإذا ذكر الله تعالى ذابت تلك القسوة كما يذوب الرصاص في النار ، فما أذيبت قسوة القلوب بمثل ذكر الله عز وجل .

السابعة والأربعون : أن الذكر شفاء القلب ودواؤه ، والغفلة مرضه ، فالقلوب مريضة ، وشفاؤها ودواؤها في ذكر الله تعالى .

قال مكحول : ذكر الله تعالى شفاء ، وذكر الناس داء .

وذكر البيهقي عن مكحول مرفوعاً ومرسلا . ذكرته شفاها وعافاها ، فإذا غفلت عنه انتكست ، كما قيل :

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَاناً فَنَنْتَكِسُ

الثامنة والأربعون : أن الذكر أصل موالاة الله عز وجل ورأسها ، والغفلة أصل معاداته ورأسها ، فإن العبد لا يزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه ، ولا يزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه .

قال الأوزاعي : قال حسان بن عطية : ما عادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره .

فهذه المعاداة سببها الغفلة ، ولا تزال بالعبد حتى يكره ذكر الله ويكره من يذكره ، فحينئذ يتخذه عدواً كما اتخذ الذاكر ولياً .

التاسعة والأربعون : أنه ما استجلبت نعم الله عز وجل واستدفعت نقمه بمثل ذكر الله تعالى ، فالذكر جلاب للنعم ، دافع للنقم ، قال سبحانه وتعالى :

(إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا)(١) .

وفي القراءة الأخرى : «(إن الله يدافع)» فدفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله ، ومادة الإيمان وقوته بذكر الله تعالى ، فمن

---

(١) الحج : ٣٨ .

كان أكمل إيماناً ، وأكثر ذكراً ، كان دفع الله تعالى عنه ودفاعه أعظم ، ومن نقص نقص ذكراً بذكر ، ونسياناً بنسيان ، وقال سبحانه وتعالى :

(وإِذْ تَأَذَّنَ ربُّكُم لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ) (١) .

والذكر رأس الشكر ، كما تقدم ، والشكر جلاب النعم ، وموجب للمزيد .

قال بعض السلف رحمة الله عليهم : ما أقبح الغفلة عن ذكر من لايغفل عن ذكرك .

الخمسون : أن الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر ، ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته ، فقد أفلح كل الفلاح ، وفاز كل الفوز ، قال سبحانه وتعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُروا الله ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ومَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ وَكَانَ بِالمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (٢) .

فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته ، إنما هى سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور ، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته ، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور ، فأى خير لم يحصل لهم ، وأى شر لم يندفع عنهم ؟ فيا حسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله ، وبالله التوفيق .

الحادية والخمسون : أن من شاء أن يسكن رياض الجنة فى الدنيا ، فليستوطن مجالس الذكر ، فإنها رياض الجنة .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا وغيره من حديث جابر بن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس ارتعوا فى رياض الجنة » ، قلنا : يا رسول الله ! وما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » ،

---

(١) إبراهيم : ٧ .
(٢) الأحزاب : ٤١–٤٣ .

ثم قال : « اغدوا وروحوا واذكروا ، فمن كان يحب أن يعلم منزلته عند الله تعالى : فلينظر كيف منزلة الله تعالى عنده ، فإن الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه » (١) .

الثانية والخمسون : أن مجالس الذكر مجالس الملائكة ، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه ، كما أخرجا فى « الصحيحين » من حديث الأعمش ، عن أبى صالح ، عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لله ملائكة فضلا عن كتاب الناس يطوفون فى الطرق يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، قال : فيسألهم ربهم تعالى — وهو أعلم بهم — : ما يقول عبادى ؟ قال : يقولون : يسبحونك ، ويكبرونك ، ويحمدونك ، (ويمجدونك) . قال : فيقول : هل رأونى ؟ قال : فيقولون : لا والله ما رأوك ، قال : فيقول : كيف لو رأونى ؟ قال : فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تحميداً وتمجيداً ، وأكثر لك تسبيحاً . قال فيقول : ما يسألونى ؟ قال : يسألونك الجنة . قال : فيقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يا رب ، ما رأوها . قال : فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟ قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً ، وأشد لها طلباً ، وأعظم فيها رغبة . (قال) : فيقول : فمم يتعوذون ؟ قال : من النار . قال : يقول : وهل رأوها ؟ قال : يقولون : لا والله يارب ، ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها ، قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً ، وأشد لها مخافة . قال : يقول : فأشهدكم أنى قد غفرت لهم . (قال) : فيقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم ، إنما جاء لحاجة . قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم » (٢) .

---

(١) رواه أيضاً الحاكم ١/٤٩٤ وصححه ، وتعقبه الذهبى فقال : وعمر — يعنى ابن عبد الله مولى غفرة ، ضعيف ، ولأوله شواهد ذكرها ابن علان فى « الفتوحات الربانية » ١/٩١ — ٩٣ .

(٢) رواه البخارى ١١/١٧٧ — ١٧٩ فى الدعوات باب فضل ذكر الله عز وجل . ومسلم رقم ٢٦٨٩ في الذكر والدعاء ، باب فضل مجالس الذكر ، دون جملة « عن كتاب الناس ».

فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم ، فلهم نصيب من قوله : (وجَعَلني مُبَارَكًا أَيْنَما كُنْتُ)(١) .

فهكذا المؤمن مبارك أين حل ، والفاجر مشئوم أين حل .

فمجالس الذكر مجالس الملائكة ، ومجالس الغفلة مجالس الشياطين ، وكل مضاف إلى شكله وأشباهه ، وكل امرىء يصير إلى ما يناسبه .

الثالثة والخمسون : أن الله عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته ، كما روى مسلم فى « صحيحه » عن أبى سعيد الخدرى قال : خرج معاوية على حلقة فى المسجد ، فقال : ما أجلسكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى . قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ قالوا : آلله ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم . وما كان أحد بمنزلتى من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً منى . وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه ، فقال : « ما أجلسكم » ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا . قال « آلله ما أجلسكم إلا ذاك » قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك . قال : « أما إنى لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكنه أتانى جبريل فأخبرنى : أن الله تبارك وتعالى يباهى بكم الملائكة »(٢) .

فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده ، ومحبته له ، وأن له مزية على غيره من الأعمال .

الرابعة والخمسون : أن مدمن الذكر يدخل الجنة وهو يضحك ، لما ذكر ابن أبى الدنيا عن عبد الرحمن بن مهدى ، عن معاوية بن صالح ، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمى عن أبيه ، عن أبى الدرداء قال : « الذين لاتزال ألسنتهم رطبة من ذكر الله عز وجل يدخل أحدهم الجنة وهو يضحك » .

الخامسة والخمسون : أن جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى ، والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى .

---

(١) مريم : ٣١ .

(٢) رواه مسلم رقم ٢٧٠١ فى الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر .

قال سبحانه وتعالى : (وأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى)(١) .

قيل : المصدر مضاف إلى الفاعل ، أى : لأذكرك بها ، وقيل : مضاف إلى المذكور ، أى : لتذكرونى بها . واللام فى هذا لام التعليل . وقيل : هى اللام الوقتية ، أى : أقم الصلاة عند ذكرى ، كقوله : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ)(٢) .

وقوله تعالى : (ونَضَعُ المَوَازِينَ القِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ)(٣) .

وهذا المعنى يراد بالآية ، لكن تفسيرها به بجعل معناها فيه نظر ، لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف ، والذكر مصدر إلا أن يقدر زمان محذوف ، أى : عند وقت ذكرى ، وهذا محتمل .

والأظهر : أنها لام التعليل ، أى : أقم الصلاة لأجل ذكرى ، ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره ، وإذا ذكر العبد ربه ، فذكر الله تعالى سابق على ذكره ، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره . فالمعانى الثلاثة حق .

وقال سبحانه وتعالى : (أُتْلُ مَا أُوحِىَ إِلَيكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ ولَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ)(٤) .

فقيل : المعنى : إنكم فى الصلاة تذكرون الله ، وهو ذاكر من ذكره ، ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه . وهذا يروى عن ابن عباس ، وسلمان ، وأبى الدرداء ، وابن مسعود ، رضى الله عنهم .

وذكر ابن أبى الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية : *(ولذكر الله أكبر)* قال : هو قوله تعالى : *(فاذكرونى أذكركم)* ، فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه .

وقال ابن زيد وقتادة : معناه : وذكر الله أكبر من كل شىء .

---

(١) طه : ١٤ .

(٢) الإسراء : ٧٨ .

(٣) الأنبياء : ٤٧ .

(٤) العنكبوت ٤٥ .

وقيل لسلمان : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أما تقرأ القرآن *(ولذكر الله أكبر)* . ويشهد لهذا حديث أبى الدرداء المتقدم : «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق . . . الحديث (١) .

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول : الصحيح : أن معنى الآية : أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان ، وأحدهما أعظم من الآخر ، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى مشتملة على ذكر الله تعالى ، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر .

وذكر ابن أبى الدنيا عن ابن عباس أنه سئل : أى العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر .

وفى « السنن » عن عائشة ، عن النبى ﷺ قال : « إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله تعالى » رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح (٢) .

السادسة والخمسون : أن أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً لله عز وجل ، فأفضل الصوام : أكثرهم ذكراً لله عز وجل فى صومهم ، وأفضل المتصدقين ، أكثرهم ذكراً لله عز وجل ، وأفضل الحاج : أكثرهم ذكراً لله عز وجل . وهكذا سائر الأحوال .

وقد ذكر ابن أبى الدنيا حديثاً مرسلا فى ذلك : أن النبى ﷺ سئل : أى أهل المسجد خير ؟ قال : « أكثرهم ذكراً لله عز وجل » قيل : أى الجنازة خير ؟ قال : « أكثرهم ذكراً لله عز وجل » . قيل : فأى المجاهدين خير ؟ قال : « أكثرهم ذكراً لله عز وجل » قيل : فأى الحجاج خير ؟ قال : « أكثرهم ذكراً لله عز وجل » قيل : وأى العباد خير ؟ قال : « أكثرهم ذكراً لله عز وجل » . قال أبو بكر : ذهب الذاكرون بالخير كله .

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك ١/٤٩٦ وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) رواه أبو داود رقم ١٨٨٨ فى المناسك ، باب فى الرمل ، والترمذى رقم ٩٠٢ فى الحج ، باب كيف يرمى الجمار ، وإسناده حسن . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وقال عبيد بن عمير : إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه ، وبخلتم بالمال أن تنفقوه ، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه ، فأكثروا من ذكر الله عز وجل .

السابعة والخمسون : أن إدامته تنوب عن التطوعات ، وتقوم مقامها ، سواء كانت بدنية ، أو مالية ، أو بدنية مالية ، كحج التطوع ،

وقد جاء ذلك صريحاً فى حديث أبى هريرة : إن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله ، ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى ، والنعيم المقيم ، فقال : وما ذاك ؟ قالوا : يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل أموالهم ، يحجون بها ، ويعتمرون ، ويجاهدون (ويتصدقون) . فقال : « ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم ، وتسبقون به من بعدكم ، ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع ما صنعتم » ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : « تسبحون ، وتحمدون ، وتكبرون خلف كل صلاة . . الحديث » متفق عليه (١) .

فجعل الذكر عوضاً لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد ، وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر ، فلما سمع أهل الدثور بذلك عملوا به ، فازدادوا إلى صدقاتهم وعبادتهم بمالهم — التعبد بهذا الذكر ، فحازوا الفضيلتين ، فنافسهم الفقراء ، وأخبروا رسول الله ﷺ بأنهم قد شاركوهم فى ذلك ، فانفردوا عنهم بما لا قدرة لهم عليهم ، فقال : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » (٢) .

وفى حديث عبد الله بن بسر قال : جاء أعرابى فقال : يا رسول الله، كثرت على خلال الإسلام وشرائعه ، فأخبرنى بأمر جامع يكفينى . قال :

---

(١) رواه البخارى ٢/٢٧٠ و ٢٧١ فى صفة الصلاة ، باب الذكر بعد الصلاة ، ومسلم رقم ٥٩٥ فى المساجد ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة .

(٢) وهى عند مسلم فى إحدى روايات الحديث الذى قبله .

« عليك بذكر الله تعالى » قال : ويكفيني يا رسول الله ؟ قال : « نعم ، ويفضل عنك »(١) .

فدله الناصح ﷺ على شيء يعينه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها ، فإنه إذا اتخذ ذكر الله تعالى شعاره أحبه وأحب ما يحب ، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام ، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام ، وتسهل به عليه ، وهو ذكر الله عز وجل . يوضحه .

الثامنة والخمسون : أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته ، فإنه يحببها إلى العبد ، ويسهلها عليه ، ويلذذها له ، ويجعلها قرة عينه فيها ، ونعيمه وسروره بها . بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل ، والتجربة شاهدة بذلك . يوضحه .

التاسعة والخمسون : أن ذكر الله عز وجل يسهل الصعب ، وييسر العسير ، ويخفف المشاق ، فما ذكر الله عز وجل على صعب إلا هان ، ولا على عسير إلا تيسر ، ولا مشقة إلا خفت ، ولا شدة إلا زالت ، ولا كربة إلا انفرجت ، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة ، واليسر بعد العسر ، والفرج بعد الغم والهم . يوضحه .

الستون : أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها ، وله تأثير عجيب في حصول الأمن ، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل ، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه ، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له ، والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف ، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا . والله المستعان .

الحادية والستون : أن الذكر يعطي الذاكر قوة ، حتى إنه ليفعل

---

(١) رواه بمعناه الترمذي رقم ٣٣٧٢ في الدعوات ، باب فضل الذكر ، وابن ماجه رقم ٣٧٩٣ في الأدب ، وإسناده صحيح .

ورواه الحاكم ١/٤٩٥ وصححه ووافقه الذهبي ، وقد تقدم .

مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه ، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية فى سننه : كلامه ، وإقدامه وكتابه ، أمراً عجيباً ، فكان يكتب فى اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ فى جمعة وأكثر ، وقد شاهد العسكر من قوته فى الحرب أمراً عظيماً .

وقد علم النبى ﷺ ابنته فاطمة وعلياً رضى الله تعالى عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين ، ويحمدا ثلاثاً وثلاثين ، ويكبرا أربعاً وثلاثين ، لما سألته الخادم ، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعى والخدمة : فعلمها ذلك وقال : «أنه خير لكما من خادم»(١) .

فقيل : إن من داوم على ذلك وجد قوة فى يومه مغنية عن خادم .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يذكر أثراً فى هذا الباب ويقول : إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا : يا ربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ؟ فقال : قولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما قالوا ، حملوه ، حتى رأيت ابن أبى الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينه عن الليث بن سعد ، عن معاوية بن صالح قال : حدثنا مشيختنا أنه بلغهم : أن أول ما خلق الله عز وجل — حين كان عرشه على الماء — حملة العرش ، قالوا : ربنا لم خلقتنا ؟ قال : خلقتكم لحمل عرشى . قالوا : ربنا ومن يقوى على حمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك ؟ قال : لذلك خلقتكم . فأعادوا عليه ذلك مراراً ، فقال لهم : قولوا : لاحول ولا قوة إلا بالله ، فحملوه (٢) .

---

(١) رواه البخارى ٧/٥٩ فى فضائل أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، باب مناقب على ابن أبى طالب ، وفى الجهاد ، باب الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمساكين ، وفى النفقات ، باب عمل المرأة فى بيت زوجها ، وباب خادم المرأة وفى الدعوات باب التكبير والتسبيح عند المنام ، ومسلم رقم ٢٧٢٧ فى الذكر والدعاء ، باب التسبيح أول النهار وعند النوم ، والترمذى رقم ٣٤٠٥ فى الدعوات ، باب ما جاء فى التسبيح والتكبير والتحميد عند المنام ، وأبو داود رقم ٢٩٨٨ و ٢٩٨٩ فى الخراج والإمارة ، باب بيان مواضع قسم الخمس وسهم ذى القربى .

(٢) وهذا الأثر فيه جهالة وانقطاع .

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب فى معاناة الأشغال الصعبة ، وتحمل المشاق والدخول على الملوك ، ومن يخاف ، وركوب الأهوال . ولها أيضاً تأثير فى دفع الفقر ، كما روى ابن أبى الدنيا عن الليث بن سعد ، عن معاوية ابن صالح ، عن أسد بن وداعة رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، مائة مرة فى كل يوم ، لم يصبه فقر أبداً » (١) .

وكان حبيب بن سلمة يستحب إذا لقى عدواً ، أو ناهض حصناً قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وإنه ناهض يوماً حصناً للروم ، فانهزم ، فقالها المسلمون وكبروا ، فانهدم الحصن .

الثانية والستون : أن عمال الآخرة كلهم فى مضمار السباق ، والذاكرون هم أسبقهم فى ذلك المضمار ، ولكن القترة والغبار يمنع من رؤية سبقهم ، فإذا انجلى الغبار وانكشف ، رآهم الناس وقد حازوا قصب السبق .

قال الوليد بن مسلم : قال محمد بن عجلان : سمعت عمر مولى غفرة (٢) يقول : إذا انكشف الغطاء للناس يوم القيامة عن ثواب أعمالهم ، لم يروا عملا أفضل ثواباً من الذكر ، فيتحسر عند ذلك أقوام فيقولون : ما كان شىء أيسر علينا من الذكر .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « سيروا ، سبق المفردون » قالوا : وما المفردون قال : « الذين أهتروا (٣) فى ذكر الله تعالى يضع الذكر عنهم أوزارهم » (٤) .

---

(١) وإسناده منقطع .

(٢) هو عمر بن عبد الله المدنى أبو حفص مولى غفرة ، وهو ضعيف كما قال الحافظ فى « التقريب » .

(٣) فى « مسند أحمد » و « مستدرك الحاكم » : يهترون فى ذكر الله .

(٤) رواه أحمد فى « المسند » ٢/٣٢٣ . والترمذى رقم ٣٥٩٠ فى الدعوات ، باب رقم ١٣٩ ، والحاكم ١/٤٩٥ وصححه ووافقه الذهبى . ورواه مسلم رقم ٢٦٧٦ فى الذكر باب الحث على ذكر الله بلفظ : « سبق المفردون » . قالوا وما المفردون يارسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » .

أهتروا بالشيء وفيه : أولعوا به ولزموه وجعلوه دأبهم .

في بعض ألفاظ الحديث : « المستهترون بذكر الله »(١) .

ومعناه : الذين أولعوا به ، يقال : استهتر فلان بكذا : إذا أولع به .

وفيه تفسير آخر : أن « أهتروا في ذكر الله » أي : كبروا وهلك أقرانهم وهم في ذكر الله تعالى .

يقال : أهتر الرجل ، فهو مهتر : إذا سقط في كلامه من الكبر ، والهتر : السقط من الكلام ، كأنه بقي في ذكر الله تعالى حتى خرف وأنكر عقله ، والهتر : الباطل أيضاً ورجل مستهتر : إذا كان كثير الأباطيل .

وفي حديث ابن عمر : أعوذ بالله أن أكون من المستهترين .

وحقيقة اللفظة : أن الاستهتار : الإكثار من الشيء ، والولوع به . حقاً كان أو باطلا ، وغلب استعماله على المبطل ، حتى إذا قيل : فلان مستهتر ، لا يفهم منه إلا الباطل ، وإنما إذا قيد بشيء تقيد به ، نحو : هو مستهتر ، وقد أهتر في ذكر الله تعالى ، أي : أولع به وأغرى به .

ويقال : استهتر فيه وبه . وتفسير هذا في الأثر الآخر : « أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقال : مجنون »(٢) .

الثالثة والستون : أن الذكر سبب لتصديق الرب عز وجل عبده ، فإنه أخبر عن الله تعالى بأوصاف كماله ونعوت جلاله ، فإذا أخبر بها العبد صدقه ربه ومن صدقه الله تعالى ، لم يحشر مع الكاذبين ، ورجي له أن يحشر مع الصادقين .

روى أبو إسحاق عن الأغر أبي مسلم ، أنه شهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا قال العبد : لا إله إلا الله والله أكبر ، قال : يقول الله تبارك وتعالى :

---

(١) وهي رواية الترمذي .

(٢) رواه أحمد في « المسند » ٣/٦٩ و ٧١ ، والحاكم ١/٤٩٩ من حديث دراج أبي السمح عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، ورواية دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد ضعيفة . وقال الحافظ في « التهذيب » في ترجمة دراج : قال ابن عدي : ومما ينكر من حديثه : « أكثروا من ذكر الله حتى يقال مجنون » .

صدق عبدى . لا إله إلا أنا وأنا أكبر ، وإذا قال : لا إله إلا الله وحده . قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا وحدى ، وإذا قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قال ، صدق عبدى ، لا إله إلا أنا ، لا شريك لى ، وإذا قال : لا إله إلا الله له الملك وله الحمد ، قال : صدق عبدى ، لا إله إلا أنا ، لى الملك ولى الحمد . وإذا قال : لا إله إلا الله . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، قال : صدق عبدى لا إله إلا أنا ، ولا حول ولا قوه إلا بى » قال أبو إسحاق : ثم قال الأغر شيئاً لم أفهمه ، قلت لأبى جعفر : ما قال ؟ قال : « من رزقهن عند موته لم تمسه النار » (١) .

الرابعة والستون : أن دور الجنة تبنى بالذكر ، فإذا أمسك الذاكر عن الذكر ، أمسكت الملائكة عن البنـــاء .

وذكر ابن أبى الدنيا فى كتابه ، عن حكيم بن محمد الأخنسى قال : بلغنى أن دور الجنة تبنى بالذكر ، فإذا أمسك عن الذكر أمسكوا عن البناء ، فيقال لهم ، فيقولون : حتى تأتينا نفقة .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من قال : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم — سبع مرات ، بنى له برج فى الجنة » .

وكما أن بناءها بالذكر . فغراس بساتينها بالذكر كما تقدم فى حديث النبى ﷺ عن إبراهيم الخليل عليه السلام : « أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وإن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » (٢) .

فالذكر غراسها وبناؤها .

---

(١) رواه ابن ماجه رقم (٣٧٩٤) فى الأدب ، باب فضل لا إله إلا الله ، وابن حبان رقم (٢٣٢٥) « موارد » وإسناده صحيح ، ورواه أيضاً الترمذى رقم ٣٤٢٦ فى الدعوات باب ما يقول العبد إذا مرض ، وقال : هذا حديث حسن ، ورواه الحاكم ، وأبو يعلى ، والبيهقى فى الشعب « والضياء ، وعبد بن حميد والنسائى .

(٢) رواه الترمذى رقم ٣٤٥٨ فى الدعوات ، باب رقم ٦٠ وقال الترمذى : وفى الباب عن أبى أيوب وقال : هذا حديث حسن غريب ، وهو كما قال ، فإن له شواهد بمعناه .

وذكر ابن أبى الدنيا من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا من غراس الجنة » . قالوا : يارسول الله ، وما غراسها ؟ قال : « ما شاء الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله » (١) .

الخامسة والستون : أن الذكر سد بين العبد وبين جهنم ، فإذا كانت له إلى جهنم طريق من عمل من الأعمال ، كان الذكر سداً فى تلك الطريق ، فإذا كان ذكراً دائماً كاملا ، كان سداً محكماً لا منفذ فيه ، وإلا فبحسبه .

قال عبد العزيز بن أبى رواد : كان رجل بالبادية قد اتخذ مسجداً ، فجعل فى قبلته سبعة أحجار ، كان إذا قضى صلاته قال : يا أحجار ! أشهدكم أنه لا إله إلا الله ، قال : فمرض الرجل ، فعرج بروحه ، قال : فرأيت فى منامى أنه أمر بى إلى النار ، قال : فرأيت حجراً من تلك الأحجار أعرفه قد عظم ، فسد عنى باباً من أبواب جهنم ، ثم أتى إلى الباب الآخر ، فإذا حجر من تلك الأحجار أعرفه قد عظم ، فسد عنى باباً من أبواب جهنم ، حتى سدت عنى بقية الأحجار أبواب جهنم .

السادسة والستون : أن الملائكة تستغفر للذاكر كما تستغفر للتائب ، كما روى حسين المعلم عن عبد الله بن بريدة ، عن عامر الشعبى ، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : أجد فى كتاب الله المنزل : أن العبد إذا قال : « الحمد لله » قالت الملائكة : « رب العالمين » . وإذا قال : « الحمد لله رب العالمين » ، قالت الملائكة : « اللهم اغفر لعبدك » وإذا قال : « سبحان الله » . قالت الملائكة : « وبحمده » ، وإذا قال : « سبحان الله وبحمده » ، قالت الملائكة « اللهم اغفر لعبدك » وإذا قال : « لا إله إلا الله » قالت الملائكة : « اللهم اغفر لعبدك » .

السابعة والستون : إن الجبال والقفار تتباهى ، وتستبشر بمن يذكر الله عز وجل عليها .

قال ابن مسعود : إن الجبل لينادى الجبل باسمه : أمر بك اليوم أحد يذكر الله عز وجل ؟ فإذا قال : نعم ، استبشر .

---

(١) وذكره الهيثمى فى « المجمع » ونسبه للطبرانى وقال : وفيه عقبة بن على ، وهو ضعيف .

قال عون بن عبد الله : إن البقاع لينادى بعضها بعضاً : ياجارتاه ، أمر بك اليوم أحد يذكر الله ؟ فقائلة : نعم ، وقائلة : لا ، فقال الأعمش عن مجاهد: إن الجبل لينادىالجبل باسمه: يافلان هل مر بك اليوم ذاكر لله عز وجل ؟ فمن قائل : لا ومن قائل نعم .

الثامنة والستون : أن كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق ، فإن المنافقين قليلو الذكر لله عز وجل .

قال الله عز وجل فى المنافقين :

(ولَايَذْكُرونَ اللهَ إِلَّا قَلِيلا) (١) .

وقال كعب : من أكثر ذكر الله عز وجل برئ من النفاق ، ولهذا — والله أعلم — ختم الله تعالى سورة المنافقين بقوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُلْهِكُم أَمْوَالُكُم ولَاأَوْلَادُكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ ، ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فأُولئِكَ هُمُ الخَاسِرون) (٢) .

فإن فى ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عز وجل ، فوقعوا فى النفاق .

وسئل بعض الصحابة رضى الله عنهم عن الخوارج : منافقون هم ؟ قال : لا المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلا .

فهذا من علامة النفاق : قلة ذكر الله عز وجل ، وكثرة ذكره أمان من النفاق ، والله عز وجل أكرم من أن يبتلى قلباً ذاكراً بالنفاق ، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل .

التاسعة والستون : أن للذكر من بين الأعمال لذة لا يشبهها شىء ، فلو لم يكن للعبد من ثوابه إلا اللذة الحاصلة للذاكر ، والنعيم الذى يحصل لقلبه ، لكفى به ، ولهذا سميت مجالس الذكر رياض الجنة .

قال مالك بن دينار : ما تلذذ المتلذذون بمثل ذكر الله عز وجل ، فليس

---

(١) النساء : ١٤٢ .

(٢) المنافقون : ٩ .

شيء من الأعمال أخف مؤونة منه ، ولا أعظم لذة ، ولا أكثر فرحة وابتهاجاً للقلب .

السبعون : أنه يكسو الوجه نضرة فى الدنيا ، ونوراً فى الآخرة ، فالذاكرون أنضر الناس وجوها فى الدنيا ، وأنورهم فى الآخرة .

ومن المراسيل عن النبي ﷺ قال : « من قال كل يوم مائة مرة : « لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، يحيي ويميت ، بيده الخير ، وهو على كل شيء قدير ، أتى الله تعالى يوم القيامة ووجهه أشد بياضاً من القمر ليلة البدر » .

الحادية والسبعون : أن فى دوام الذكر فى الطريق ، والبيت ، والحضر ، والسفر ، والبقاع ، تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة ، فإن البقعة ، والدار ، والجبل ، والأرض ، تشهد للذاكر يوم القيامة .

قال تعالى : (إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وقَال الإِنْسانُ ما لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَها * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَها) (١) .

فروى الترمذى فى « جامعه » . من حديث سعيد المقبرى : عن أبى هريرة قال : قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (يومئذ تحدث أخبارها) ، قال : « أتدرون ما أخبارها » ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال : « فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها ، تقول : « عمل يوم كذا وكذا » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح (٢) .

والذاكر لله عز وجل فى سائر البقاع مكثر شهوده ، ولعلهم أو أكثرهم

---

(١) الزلزلة : ١-٥ .

(٢) رواه الترمذى رقم ٣٣٥٠ فى التفسير ، باب ومن سورة إذا زلزلت ، وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم ٥٣٢/١ وصححه ، وتعقبه الذهبى بأن يحيى بن أبى سليمان منكر الحديث ، قاله البخارى ، وقال الحافظ فى « التقريب » : لين الحديث ولكن للحديث شاهد عند أبى مردويه والبيهقى فى « شعب الإيمان » من حديث أنس رضى الله عنه ، عند الطبرانى من حديث ربيعة الجرشى ، فالحديث حسن بشواهده .

أن يقبلوه يوم القيامة يوم قيام الأشهاد ، وأداء الشهادات ، فيفرح ويغتبط بشهادتهم .

الثانية والسبعون : أن فى الاشتغال بالذكر اشتغالا عن الكلام الباطل من الغيبة ، والنميمة ، واللغو ، ومدح الناس ، وذمهم ، وغير ذلك ، فإن اللسان لا يسكت ألبتة .

فإما لسان ذاكر ، وإما لسان لاغ ، ولابد من أحدهما . فهى النفس إن لم تشغلها بالحق ، شغلتك بالباطل ، وهو القلب ، إن لم تسكنه محبة الله عز وجل ، سكنه محبة المخلوقين ولابد ، وهو اللسان ، إن لم تشغله بالذكر شغلك باللغو ، وما هو عليك ولابد ، فاختر لنفسك إحدى الخطتين ، وأنزلها فى إحدى المنزلتين .

الثالثة والسبعون : وهى التى بدأنا بذكرها ، وأشرنا إليها إشارة ، فنذكرها هاهنا مبسوطة لعظيم الفائدة بها ، وحاجة كل أحد ، بل ضرورته إليها ، وهى أن الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه ، فما ظنك برجل قد احتوشه أعداؤه المحنقون عليه غيظاً ، وأحاطوا به ، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى ، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل .

وفى هذا الحديث العظيم ، الشريف القدر ، الذى ينبغى لكل مسلم أن يحفظه ، فنذكره بطوله لعموم فائدته ، وحاجة الخلق إليه ، وهو حديث سعيد بن المسيب ، عن عبد الرحمن بن سمرة بن جندب قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً ، وكنا فى صفة بالمدينة ، فقام علينا وقال : « إنى رأيت البارحة عجباً : رأيت رجلا من أمتى أتاه ملك الموت ليقبض روحه ، فجاءه بره بوالديه ، فرد ملك الموت عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد بسط عليه عذاب القبر ،فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك،ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته ملائكة العذاب ، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم ، ورأيت رجلا من أمتى يلتهب — وفى رواية : يلهث عطشاً ، كلما دنا من حوض منع وطرد ، فجاءه صيام شهر رمضان ،

فأسقاه وأرواه ، ورأيت رجلا من أمتى . ورأيت النبيين جلوساً حلقاً حلقاً ، كلما دنا إلى حلقة طرد ، فجاءه غسله من الجنابة ، فأخذ بيده فأقعده إلى جنبى ، ورأيت رجلا من أمتى بين يديه ظلمة ، ومن خلفه ظلمة ، وعن يمينه ظلمة ، وعن يساره ظلمة ، ومن فوقه ظلمة ، ومن تحته ظلمة ، وهو متحير فيها ، فجاءه حجه وعمرته ، فاستخرجاه من الظلمة ، وأدخلاه فى النور ، ورأيت رجلا من أمتى يتقى بيده وهج النار وشرره ، فجاءته صدقته . فصارت سترة بينه وبين النار ، وظللت على رأسه ، ورأيت رجلا من أمتى يكلم المؤمنين ولا يكلمونه ، فجاءته صلته لرحمه فقالت : يامعشر المسلمين ، إنه كان وصولا لرحمه فكلموه ، فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم ، ورأيت رجلا من أمتى قد احتوشته الزبانية ، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فاستنقذه من أيديهم ، وأدخله فى ملائكة الرحمة ، ورأيت رجلا من أمتى جاثياً على ركبتيه ، وبينه . وبين الله عز وجل حجاب ، فجاءه حسن خلقه ، فأخذه بيده ، فأدخله على الله عز وجل ، ورأيت رجلا من أمتى قد ذهبت صحيفته من قبل شماله ، فجاءه خوفه من الله عز وجل ، فأخذ صحفته فوضعها فى يمينه . ورأيت رجلا من أمتى خف ميزانه ، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه ، ورأيت رجلا من أمتى قائماً على شفير جهنم ، فجاءه رجاؤه فى الله عز وجل ، فاستنقذه من ذلك ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى قد أهوى فى النار ، فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله عز وجل ، فاستنقذته من ذلك ، ورأيت رجلا من أمتى قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ريح عاصف ، فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل ، فسكن رعدته ومضى ، ورأيت رجلا من أمتى يزحف على الصراط ، ويحبو أحياناً ، ويتعلق أحياناً ، فجاءته صلاته على فأقامته على قدميه ، وأنقذته ، ورأيت رجلا من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه ، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ، ففتحت له الأبواب ، وأدخلته الجنة » .

رواه الحافظ أبو موسى المدينى فى كتاب « الترغيب فى الخصال المنجية والترهيب من الخلال المردية » وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له ، وقال : هذا حديث حسن جداً . رواه عن سعيد بن المسيب : عمرو بن آزر ، وعلى بن زيد

ابن جدعان ، وهلال أبو جبلة . وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يعظم شأن هذا الحديث ، وبلغني عنه أنه كان يقول شواهد الصحة عليه . والمقصود منه قوله ﷺ : « ورأيت رجلا من أمتي قد احتوشته الشياطين ، فجاءه ذكر الله عز وجل ، فطرد الشيطان عنه » فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري الذي شرحناه في هذه الرسالة .

وقوله فيه « وأمركم بذكر الله عز وجل ، وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو ، فانطلقوا في طلبه سراعاً ، وانطلق حتى أتى حصناً حصينا ، فأحرز نفسه فيه » .

فكذلك الشيطان لا يحرز العباد أنفسهم منه إلا بذكر الله عز وجل ، وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « من قال — يعني إذا خرج من بيته — بسم الله ، توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : كفيت وهديت ووقيت ، وتنحى عنه الشيطان ، فيقول لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي » ؟ رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال : حديث حسن (١) .

وقد تقدم قوله ﷺ : « من قال في يوم مائة مرة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسي » . وذكر سفيان عن أبي الزبير ، عن عبد الله ابن ضمرة ، عن كعب قال : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله ، قال الملك : هديت ، وإذا قال : توكلت على الله ، قال الملك : كفيت ، وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله قال الملك : حفظت . فيقول الشياطين بعضهم لبعض : ارجعوا ، ليس لكم عليه سبيل ، كيف لكم بمن كفي وهدي وحفظ ؟ .

وقال أبو خلاد المصري : من دخل في الإسلام ، دخل في حصن ،

---

(١) رواه أبو داود رقم ٥٠٩٥ في الأدب ، باب ما يقول إذا خرج من بيته ، والترمذي رقم ٣٤٢٢ في الدعوات ، باب رقم ٣٤ ولم نجده عند النسائي ، ولعله في « الكبرى » ، ورواه أيضاً ابن حبان رقم ٢٣٧٥ « موارد » . وقال الترمذي : هذا حسن . وهو كما قال .

ومن دخل المسجد ، فقد دخل فى حصنين ، ومن جلس فى حلقة يذكر الله عز وجل فيها ، فقد دخل فى ثلاثة حصون .

وقد روى الحافظ أبو موسى فى كتابه من حديث أبى عمران الجونى ، عن أنس ، عن النبى ﷺ قال : إذا وضع العبد جنبه على فراشه ، فقال : بسم الله ، وقرأ فاتحة الكتاب ، أمن من شر الجن والإنس ومن كل شىء (١)

وفى « صحيح البخارى » ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى هريرة ، قال : ولانى رسول الله ﷺ زكاة رمضان أن أحتفظ بها ، فأتانى آت ، فجعل يحثو الطعام ، فأخذته ، فقال : دعنى فإنى لا أعود . . . فذكر الحديث ، وقال : فقال له فى الثالثة : أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسى من أولها إلى آخرها ، فإنه لا يزال عليك من الله حافظ ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح ، فخلى سبيله ، فأصبح ، فأخبر النبى ﷺ بقوله ، فقال : « صدقك ، وهو كذوب » (٢) .

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى الزبير عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أوى الإنسان إلى فراشه ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : اختم بخير ، ويقول الشيطان ، اختم بشر ، فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه — يعنى النوم — طرد الملك الشيطان وبات يكلؤه ، فإذا استيقظ ، ابتدره ملك وشيطان ، فيقول الملك : افتح بخير ، ويقول الشيطان : افتح بشر ، فإن قال : الحمد لله الذى أحيا نفسى بعد موتها ولم يمتها فى منامها ، الحمد لله الذى يمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ، الحمد لله الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، الحمد لله الذى يمسك السماء أو

---

(١) وذكره السيوطى فى « الجامع الكبير » ونسبه للبزار والديلمى . قال الهيثمى فى « المجمع » : وفيه غسان بن عبيد ، وهو ضعيف ، ووثقه ابن حبان . وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه البخارى تعليقاً ٤/٣٩٦ — ٣٩٨ فى الوكالة ، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز . قال الحافظ فى « الفتح » ٤/٣٩٨ وصله النسائى والإسماعيلى وأبو نعيم .

تقع على الأرض إلا بإذنه ، (١) طرد الملك الشيطان وظل يكلؤه » (٢) .

وفى «الصحيحين» : من حديث سالم بن أبى الجعد ، عن كريب ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أما إن أحدكم إذا أتى أهله قال : بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان ، وجنب الشيطان ما رزقتنا ، فيولد بينهما ولد لا يضره شيطان أبداً » (٣) .

وذكر الحافظ أبو موسى : عن الحسن بن على قال : أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله تعالى من كل شيطان ظالم ، ومن كل شيطان مريد ، ومن كل سبع ضار ، ومن كل لص عاد : آية الكرسى ، وثلاث آيات من الأعراف .

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ) (٤) .

وعشراً من الصافاتِ(٥) ، وثلاثَ آياتٍ من الرحْمٰن .

(يامَعْشَرَ الجنِّ والإِنْسِ) (٦) .

وخاتمة سورة الحشر :

(لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا القرآن) (٧) .

---

(١) الذى فى « موارد الظمآن » . و « مجمع الزوائد » بدل هذه الجملة الأخيرة من الحديث : طرد الملك . . . الخ : فإن وقع عن سريره دخل الجنة . والذى فى « مستدرك الحاكم » : « فإن خرق دابة مات شهيداً ، وإن قام فصلى صلى فى الفضائـــل » .

(٢) ورواه بمعناه ابن حبان ٢٣٦٢ « موارد » . والحاكم ١/٥٤٨ وصححه ووافقه الذهبى ورجاله ثقات ، وذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ١٠ /١٢٠ وقال : رواه أبو يعلى ، ورجاله رجال الصحيح ، غير إبراهيم بن الحجاج الشامى ، وهو ثقة .

(٣) رواه البخارى ١٣/٣٢١ فى التوحيد ، باب السؤال بأسماء الله تعالى . وفى بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده . وفى الدعوات . باب الدعاء المتزوج ، ومسلم رقم ١٤٣٤ فى النكاح باب ما يستحب أن يقوله عند الجماع .

(٤) الأعراف ٥٤ - ٥٧ .

(٥) الصافات ١-١٠ .

(٦) الرحمن ٣٣ - ٣٤ .

(٧) الحشر : ٢١ - ٢٤ .

وقال محمد بن أبان : بينما رجل يصلى فى المسجد ، إذا هو بشىء إلى جنبه ، فجفل منه ، فقال : ليس عليك منى بأس ، إنما جئتك فى الله تعالى ائت عروة فسله : ما الذى يتعوذه ؟ — يعنى من إبليس الأباليس — . قال : قل آمنت بالله العظيم وحده ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واعتصمت بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم حسبى الله وكفى ، سمع الله لمن دعا ، ليس وراء الله منتهى .

وقال بشر بن منصور : عن وهيب بن الورد قال : خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل ، قال : فسمعت حساً — أو صوتاً — شديداً ، وجىء بسرير حتى وضع ، وجاء شىء حتى جلس عليه ، قال : واجتمعت إليه جنوده ، ثم صرخ فقال : من لى بعروة بن الزبير ؟ فلم يجبه أحد حتى تتابع ما شاء الله عز وجل من الأصوات ، فقال واحد : أنا أكفيكه . قال : فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر ، ثم أوشك الرجعة ، فقال : لا سبيل إلى عروة ، وقال : ويلكم وجدته يقول كلمات إذا أصبح وإذا أمسى ، فلا نخلص إليه معهن ، قال الرجل ، فلما أصبحت ، قلت لأهلى : جهزونى ، فأتيت المدينة ، فسألت عنه حتى دللت عليه ، فإذا شيخ كبير ، فقلت : أشيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت ؟ فأبى أن يخبرنى ، فأخبرته بما رأيت وما سمعت ، فقال : ما أدرى ، غير أنى أقول إذا أصبحت : آمنت بالله العظيم ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها ، والله سميع عليم ، إذا أصبحت قلت ثلاث مرات ، وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات .

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال : قال جبريل للنبى ﷺ : إن عفريتا من الجن يكيدك ، فاذا أويت إلى فراشك فقل : أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، ومن شر ما ذرأ من الأرض وما يخرج منها ، ومن شر فتن الليل والنهار ، ومن شر طوارق الليل والنهار ، إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن (١) .

---

(١) وإسناده منقطع ، ورواه مالك فى « الموطأ » ٢/ ٩٥١ و ٩٥٢ فى كتاب الشعر ، =

وقد ثبت فى « الصحيح » أن الشيطان يهرب من الأذان .

قال سهيل بن أبى صالح : أرسلنى أبى إلى بنى حارثة ومعى غلام — أو صاحب — لنا ، فنادى مناد من حائط باسمه ، فأشرف الذى معى على الحائط ، فلم ير شيئاً ، فذكرت ذلك لأبى ، فقال : لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك ، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة ، فإنى سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الشيطان إذا نودى بالصلاة ، ولى وله حصاص » .

وفى رواية : « إذا سمع النداء ولى وله ضراط ، حتى لا يسمع التأذين . . . » الحديث (١) .

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبى رجاء ، عن أبى بكر الصديق قال : قال رسول الله ﷺ : « استكثروا من لا إله إلا الله والاستغفار ، فإن الشيطان قال : قد أهلكتهم بالذنوب ، وأهلكونى بقول : لا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك منهم ، أهلكتهم بالاهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون ، فلا يستغفرون » (٢) .

وذكر أيضاً عن إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة قال : بينا رجل مسافر ، إذ مر برجل نائم ، ورأى عنده شيطانين ، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه : اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه ، فلما

=باب ما يؤمر به من التعوذ عن يحيى بن سعيد مرسلا . قال الزرقانى فى « شرح الموطأ » : ووصله النسائى من طريق محمد بن جعفر ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، عن ابن عباس السلمى ، عن ابن مسعود ، قال الزرقانى : قال حمزة الكنانى الحافظ : هذا ليس بمحفوظ ، والصواب مرسل ، وقال السيوطى : وأخرجه البيهقى فى « الأسماء والصفات » من طريق داود بن عبد الرحمن العطار . عن يحيى بن سعيد ، قال : سمعت رجلا من أهل الشام يحدث عن ابن مسعود قال : لما كان ليلة الجن أقبل عفريت فى يده شعلة . . فذكره . انتهى قال الزرقانى : وفيه نظر . لأن ليلة الجن هى ليلة استماعهم القرآن . وهى غير ليلة الإسراء . فهما حديثان وإن اتحد لفظ الاستعاذة فيهما .

(١) رواه البخارى ٢/٦٩ و ٧٠ فى الأذان ، باب فضل التأذين ، ومسلم رقم ٣٨٩ فى الصلاة . باب فضل الأذان وهرب الشيطان عند سماعه .

(٢) ذكره الهيثمى فى « مجمع الزوائد » ونسبه لأبى يعلى . وقال الهيثمى : وفيه عثمان ابن مطر ، وهو ضعيف .

دنا منه رجع إلى صاحبه فقال : لقد نام على آية ما لنا إليه سبيل ، فذهب إلى النائم ، فلما دنا منه رجع قال : صدقت ، فذهب ، ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين ، فقال : أخبرني على أي آية نمت ؟ قال : على هذه الآية :

(إِن ربَّكمْ اللهُ الذِى خَلَق السَّمٰواتِ والأَرْضَ فى سِتَّةِ أَيَّام ثم اسْتَوى على العرْشِ يُغْشِى اللَّيْل النَّهَار يطْلُبُه حثيثًا والشَّمْس والقَمر والنُّجُوم مُسخَّراتٍ بِأَمْرِه ، أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ تَباركَ اللهُ ربُّ العالمين)(١)

وقال أبو النصر هاشم بن القاسم : كنت أرى فى دارى . . . فقيل : يا أبا النضر تحول عن جوارنا ، قال : فاشتد ذلك على فكتبت إلى الكوفة إلى ابن إدريس ، والمحاربى ، وأبى أسامة ، فكتب إلى المحاربى : إن بئراً بالمدينة كان يقطع رشاؤها ، فنزل بهم ركب ، فشكوا ذلك إليهم ، فدعوا بدلو من ماء ، ثم تكلموا بهـذا الكلام ، فصبوه فى البئر ، فخرجت نار من البئر ، فطفئت على رأس البئر ، قال أبو النضر : فأخذت توراً من ماء ، ثم تكلمت فيه بهذا الكلام ، ثم تتبعت به زوايا الدار ، فرششته . فصاحوا بى : أحرقتنا ، نحن نتحول عنك . وهو : بسم الله ، أمسينا بالله الذى ليس منه شىء ممتنع ، وبعزة الله التى لا ترام ولا تضام ، وبسلطان الله المنيع نحتجب ، وبأسمائه الحسنى كلها عائذ من الأبالسة ، ومن شر شياطين الإنس والجن ، ومن شر كل معلن أو مسر ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار ، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، أعوذ بالله : بما استعاذ به موسى ، وعيسى ، وإبراهيم الذى وفى ، من شر ما خلق وذرأ وبرأ ، ومن شر إبليس وجنوده ومن شره ما يبغى ، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم :

---

(١) الأعراف : ٥٤ .

(والصَّافَّاتِ صفا * فالزَّاجراتِ زَجْراً * فالتَّالياتِ ذِكْراً * إنَّ إلٰهَكُم لواحِدٌ * ربُّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ومابينَهُما وربُّ المشَارقِ * إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بزينَةٍ الكَواكِب * وحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مارد * لايسَّمَّعُونَ إلىٰ الملَإِ الأَعْلَى ويُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ * دُحُوراً ولَهُمْ عذَابٌ واصِبٌ * إلَّا منْ خَطِفَ الخَطْفَةَ فأَتْبعهُ شهَابٌ ثَاقِبٌ)(١) .

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ لذلك العبد : يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى ، ولنذكر فصولا نافعة تتعلق بالذكر تكميلا للفائدة :

الرابعة والسبعون : الذكر نوعان : أحدهما : ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته ، والثناء عليه بهما ، وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى ، وهذا أيضاً نوعان : أحدهما : إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر . وهذا النوع هو المذكور فى الأحاديث ، نحوه : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ، و « سبحان الله وبحمده » ، و « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » ، ونحو ذلك فأفضل هذا النوع ، أجمعه للثناء ، وأعمه ، نحو « سبحان الله عدد خلقه » . فهذا أفضل من مجرد « سبحان الله » ، وقولك : « الحمد لله عدد ما خلق فى السماء ، وعدد ما خلق فى الأرض ، وعدد ما بينهما ، وعدد ما هو خالق » أفضل من مجرد قولك : « الحمد لله » .

وهذا فى حديث جويرية ، أن النبى ﷺ قال لها : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات ، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن : سبحان الله عدد خلقه ، سبحان الله رضى نفسه ، سبحان الله زنة عرشه ، سبحان الله مداد كلماته » رواه مسلم (٢) .

وفى الترمذى وسنن أبى داود ، عن سعد بن أبى وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح بها ، فقال :

---

(١) الصافات ١ — ١٠ .

(٢) رقم ٢٧٢٦ فى الذكر . باب التسبيح أول النهار ، وعند النوم . ورواه أيضاً أبو داود رقم ١٥٠٣ فى الصلاة ، باب التسبيح بالحصى ، والترمذى رقم ٣٥٥٠ فى الدعوات ، باب رقم ١١٧

« أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا أو أفضل » فقال : « سبحان الله عدد ما خلق في السماء ، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض ، وسبحان الله عدد ما بين ذلك ، وسبحان الله عدد ما هو خالق ، والله أكبر مثل ذلك ، والحمد لله مثل ذلك ، ولا إله إلا الله مثل ذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك »(١)

الخامسة والسبعون : الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته ، نحو قولك : الله عز وجل يسمع أصوات عباده ، ويرى حركاتهم ، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم ، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم ، وهو على كل شيء قدير ، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته ونحو ذلك .

وأفضل هذا النوع : الثناء عليه بما أثنى به على نفسه ، وبما أثنى به عليه رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تشبيه ولا تمثيل .

وهذا النوع أيضاً ثلاثة أنواع : حمد ، وثناء ، ومجد .

فالحمد لله : الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى ، مع محبته والرضى به ، فلا يكون المحب الساكت حامداً ، ولا المثني بلا محبة حامداً حتى تجتمع له المحبة والثناء ، فان كرر المحامد شيئاً بعد شيء كانت ثناء ، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجداً .

وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة ، فإذا قال العبد (الحمد لله رب العالمين) ، قال الله : حمدني عبدي ، وإذا قال : (الرحمن الرحيم) قال : أثنى على عبدي ، وإذا قال : (مالك يوم الدين) قال : (مجدني عبدي) (٢) .

---

(١) رواه أبو داود رقم ١٥٠٠ في الصلاة ، باب التسبيح بالحصى ، والترمذي رقم ٣٥٦٣ في الدعوات ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وتعوذه في دبر كل صلاة ، ورواه أيضاً ابن حبان رقم (٢٣٣٠) « موارد » . وهو حديث حسن بشواهده ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب . وانظر شرح الأذكار لابن علان ٢٤٤/١ .

(٢) هو جزء من حديث رواه مالك في « الموطأ » ٨٤/١ و ٨٥ في الصلاة ، باب القراءة خلف الإمام فيما لا يجهر فيه بالقراءة ، ومسلم رقم ٣٩٥ في الصلاة ، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة من حديث أبي هريرة .

السادسة والسبعون : من الذكر : ذكر أمره ونهيه وأحكامه .

وهو أيضاً نوعـــان :

أحدهما : ذكره بذلك إخباراً عنه بأنه أمر بكذا ، ونهى عن كذا ، وأحب كذا ، وسخط كذا ، ورضى كذا .

والثانى : ذكره عند أمره ، فيبادر إليه ، وعند نهيه فيهرب منه ، فذكر أمره ونهيه شىء ، وذكره عند أمره ونهيه شىء آخر ، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه .

فائدة : فهذا الذكر من الفقه الأكبر ، وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية .

ومن ذكره سبحانه وتعالى : ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ، ومواقع فضله على عبيده ، وهذا أيضاً من أجل أنواع الذكر .

فهذه خمسة أنواع :

وهى تكون بالقلب واللسان تارة ، وذلك أفضل الذكر .

وبالقلب وحده تارة ، وهى الدرجة الثانية .

وباللسان وحده تارة ، وهى الدرجة الثالثة .

فأفضل الذكر : ما تواطأ عليه القلب واللسان . وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده ، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ، ويهيج المحبة ، ويثير الحياء ويبعث على المخافة ، ويدعو إلى المراقبة ، ويزع عن التقصير فى الطاعات والتهاون فى المعاصى والسيئات ، وذكر اللسان وحده لايوجب شيئاً من هذه الآثار ، وإن أثمر شيئاً منها ، فثمرة ضعيفة .

السابعة والسبعون : الذكر أفضل من الدعاء .

الذكر ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه ، والدعاء سؤال العبد حاجته ، فأين هذا من هذا ؟

ولهذا جاء في الحديث : « من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »(١) .

ولهذا كان المستحب فى الدعاء أن يبدأ الداعى بحمد الله تعالى ، والثناء عليه بين يدى حاجته ، ثم يسأل حاجته . كما فى حديث فضالة بن عبيد ، أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو فى صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصل على النبى ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا » ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه ، ثم يصلى على النبى ﷺ ، ثم يدعو بعد بما شاء » رواه الإمام أحمد ، والترمذى وقال : حديث حسن صحيح . ورواه الحاكم فى « صحيحه »(٢) . وهكذا دعاء ذى النون عليه السلام قال فيه النبى ﷺ : « دعوة أخى ذى النون ، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله كربته : *(لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين)* وفى الترمذى : « دعوة أخى ذى النون إذ دعا وهو فى بطن الحوت *(لا إله إلا أنت ، سبحانك إنى كنت من الظالمين)* فإنه لم يدع بها مسلم فى شىء قط إلا استجاب (الله) له » (٣) .

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام .

ومنه قوله ﷺ فى دعاء الكرب : « لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم »(٤) .

---

(١) رواه الترمذى رقم ٢٩٢٧ فى ثواب القرآن ، باب رقم ٢٥ ، والدارمى ٢/٤٤١ ، وإسناده ضعيف ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، ولعله حسنه ببعض الشواهد .

(٢) رواه أحمد فى « المسند » ٦/١٨ ، والترمذى رقم ٣٤٧٥ فى الدعوات ، باب رقم ٦٦ ، ورواه أيضاً أبو داود رقم ١٤٨١ فى الصلاة ، باب الدعاء ، والحاكم ١/٢٣٠ ، وإسناده حسن ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن غريب ، وصححه الحاكم ، ووافقه الذهبى .

(٣) رواه الترمذى رقم ٣٥٠٠ فى الدعوات رقم ٨٥ من حديث سعد وهو حديث حسن ، ورواه الحاكم ١/٥٠٥ وصححه ووافقه الذهبى .

(٤) رواه البخارى ١١/١٢٣ فى الدعوات ، باب الدعاء فى الكرب ، وفى التوحيد ، باب « وكان عرشه على الماء » ومسلم رقم ٢٧٣٠ فى الذكر ، باب دعاء الكرب من حديث ابن عباس .

ومنه حديث بريدة الأسلمى الذى رواه أهل السنن ، وابن حبان فى « صحيحه » : أن رسول الله ﷺ سمع رجلا يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، فقال : « والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى» (١) .

وروى أبوداود ، والنسائى من حديث أنس أنه كان مع النبى ﷺ جالساً ورجل يصلى ثم دعا : « اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا حى يا قيوم . فقال النبى ﷺ : « لقد دعا الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب ، وإذا سئل به أعطى » (٢) .

فأخبر النبى ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر ، وأنه اسم الله الأعظم ، فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه .

وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء ، أنه يجعل الدعاء مستجاباً .

فالدعاء الذى يقدمه الذكر والثناء ، أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد ، فإن انضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته ، وافتقاره واعترافه ، كان أبلغ فى الإجابة وأفضل ، فإنه يكون قد توسل المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله ، وعرض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته ، فهذا المقتضى منه ، وأوصاف المسئول مقتضى من الله ، فاجتمع المقتضى من السائل ، والمقتضى من المسئول فى الدعاء ، وكان أبلغ وألطف موقعاً ، وأتم معرفة وعبودية .

---

(١) رواه الترمذى رقم ٤٣٧١ فى الدعوات ، باب رقم ٦٥ ، وأبو داود رقم ١٤٩٣ فى الصلاة ، باب الدعاء ، وابن حبان رقم ٢٣٨٣ « موارد » ، وإسناده صحيح ، ورواه أيضاً الحاكم ١ / ٥٠٤ وصححه ووافقه الذهبى .

(٢) رواه الترمذى رقم ٣٥٣٨ فى الدعوات ، باب رقم ١٠٩ ، وأبو داود رقم ١٤٩٥ باب الدعاء فى الصلاة ، والنسائى ٣/ ٥٢ فى السهو ، بب الدعاء بعد الذكر ، وإسناده صحيح ، ورواه أيضاً ابن حبان رقم ٢٣٨٢ « موارد » . والحاكم ١/ ٥٠٤ وصححه ووافقه الذهبى .

وأنت ترى في الشاهد — ولله المثل الأعلى — أن الرجل إذا توسل إلى من يريد معروفه بكرمه وجوده وبره ، وذكر حاجته هو ، وفقره ومسكنته، كان أعطف لقلب المسئول ، وأقرب لقضاء حاجته .

فإذا قال له : أنت جودك قد سارت به الركبان ، وفضلك كالشمس لاتنكر ، ونحو ذلك ، وقد بلغت بي الحاجة والضرورة مبلغاً لا صبر معه ونحو ذلك ، كان أبلغ في قضاء حاجته من أن يقول ابتداء : أعطني كذا وكذا .

فإذا عرفت هذا ، فتأمل قول موسى ﷺ في دعائه :

(ربِّ إنِّي لِما أَنْزَلْتَ إلىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقيرٌ)(١) .

وقول ذى النون ﷺ في دعائه :

(أَن لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ ، سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِن الظالمين)(٢) .

وقول أبينا آدم ﷺ :

(ربَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ، وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحمْنَا لَنَكُونَنَّ مِن الخَاسِرِين) (٣) .

وفي « الصحيحين » : أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : يا رسول الله ! علمني دعاء أدعو به في صلاتي ، فقال : « قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، وإنه لايغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم » (٤) .

فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر ، بين الاعتراف بحاله ، والتوسل إلى ربه عز وجل بفضله وجوده ، وأنه المنفرد بغفران الذنوب ،

---

(١) القصص : ٢٤ .

(٢) الأنبياء : ٨٧ .

(٣) الأعراف : ٢٣ .

(٤) رواه البخاري ٢/٢٦٥ في صفة الصلاة ، باب الدعاء قبل السلام ، وفي الدعوات ، باب الدعاء في الصلاة ، وفي التوحيد ، باب قول الله تعالى : « وكان الله سميعاً بصيراً » ومسلم رقم ٢٧٠٥ في الذكر ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر .

ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معاً ، فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية .

الثامنة والسبعون : قراءة القرآن أفضل من الذكر ، والذكر أفضل من الدعاء ، هذا من حيث النظر لكل منهما مجرداً .

وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل ، بل يعينه ، فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح فى الركوع والسجود ، فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما ، بل القراءة فيهما منهى عنها نهى تحريم أوكراهة ، وكذلك التسميع والتحميد فى محلهما أفضل من القراءة ، وكذلك التشهد ، وكذلك : « رب اغفر لى وارحمنى واهدنى وعافنى وارزقنى » بين السجدتين أفضل من القراءة ، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة — ذكر التهليل ، والتسبيح ، والتكبير ، والتحميد — أفضل من الاشتغال عنه بالقراءة ، وكذلك إجابة المؤذن ، والقول كما يقول أفضل من القراءة ، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه ، لكن لكل مقام مقال ، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره ، اختلت الحكمة ، وفقدت المصلحة المطلوبة منه .

وهكذا الأذكار المقيدة بمحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة ، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة ، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن . مثاله : أن يتفكر فى ذنوبه ، فيحدث ذلك له توبة من استغفار ، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن ، فيعدل إلى الأذكار والدعوات التى تحصنه وتحوطه .

وكذلك أيضاً قد يعرض للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما ، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها ، اجتمع قلبه كله على الله تعالى ، وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالا ، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع ، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجراً .

وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه نفسه ، وفرقان بين فضيلة الشيء فى نفسه وبين فضيلته العارضة ، فيعطى كل ذى حق حقه ، ويوضع كل شيء موضعه .

فللعين موضع ، وللرجل موضع ، وللماء موضع ، وللحم موضع ، وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التى هى نظام الأمر والنهى ، والله تعالى الموفق .

وهكذا الصابون والأشنان ، أنفع للثوب فى وقت ، والتجمير وماء الورد وكيه أنفع له فى وقت .

وقلت لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يوماً : سئل بعض أهل العلم : أيما أنفع للعبد ، التسبيح أو الاستغفار ؟ فقال : إذا كان الثوب نقياً ، فالبخور وماء الورد أنفع له ، وإن كان دنساً فالصابون والماء الحار أنفع له . فقال لى رحمه الله تعالى : فكيف والثياب لا تزال دنسة ؟ .

ومن هذا الباب : أن سورة (قل هو الله أحد)(١) تعدل ثلث القرآن ، ومع هذا فلا تقوم مقام آيات المواريث ، والطلاق ، والخلع ، والعدد ونحوها ، بل هذه الآيات فى وقتها وعند الحاجة إليها أنفع من تلاوة سورة الإخلاص .

ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء ، وهى جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه ، كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده ، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء .

فهذا أصل نافع جداً ، يفتح للعبد باب معرفة مراتب الأعمال وتنزيلها منازلها ، لئلا يشتغل بمفضولها عن فاضلها ، فيربح إبليس الفضل الذى بينهما ، أو ينظر إلى فاضلها فيشتغل به عن مفضولها وإن كان ذلك وقته ، فتفوته مصلحة بالكلية ، لظنه أن اشتغاله بالفاضل أكثر ثواباً وأعظم أجراً .

وهذا يحتاج إلى معرفة بمراتب الأعمال ، وتفاوتها ، ومقاصدها ، وفقه فى إعطاء كل عمل منها حقه ، وتنزيله فى مرتبته ، وتفويته لما هو أهم

---

(١) سورة الإخلاص .

منه ، أو تفويت ما هو أولى منه وأفضل ، لإمكان تداركه والعود إليه .
وهذا المفضول إن فات لا يمكن تداركه ، فالاشتغال به أولى — وهذا
كترك القراءة لرد السلام ، وتشميت العاطس — وإن كان القرآن أفضل ،
لأنه يمكنه الاشتغال بهذا المفضول والعود إلى الفاضل ، بخلاف ما إذا
اشتغل بالقراءة ، فاتته مصلحة رد السلام وتشميت العاطس ، وهكذا
سائر الأعمال إذا تزاحمت والله تعالى الموفق .

* * *

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

مطبوعات مكتبة التراث الإسلامى

١٤ شارع صفية زغلول (الإنشا) القصر العينى ـ القاهرة

٢١– حجاب المرأة المسلمة ولباسها فى الصلاة — لابن تيمية

٢٢– الاستعداد للموت وسؤال القبر — زين الدين بن على المعبرى المليبارى

٢٣– مختصر الترغيب والترهيب — ابن حجر العسقلانى

٢٤– أهل الجنة وأهل النار — عبد الغنى النابلسى

٢٥– عرش الرحمن وما ورد فيه من الأيات والأحاديث — ابن تيمية

٢٦– المعجزة وكرامات الأولياء — ابن تيمية

٢٧– كان الله ولم يكن شىء قبله (شرح لحديث عمران بن حصين) — ابن تيمية

٢٨– الدر النضيد فى شرح كلمة التوحيد — الصنعانى

٢٩– مختصر شعب الإيمان — البيهقى / القزوينى

كتب من أفكار الداعية الإسلامى الكبير الشيخ محمد متولى الشعراوى
قام بجمعها وترتيبها وإعدادها للنشر من محاضرات الشيخ وندواته وفتاويه فى الصحف والمجلات والمحافل العامة
الأستاذ / عبد القادر أحمد عطا وهى :

١ – خطب الجمعة والعيدين

٢ – شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها .

٣ – مائة سؤال وجواب فى الفقة الإسلامى — الجزء الأول

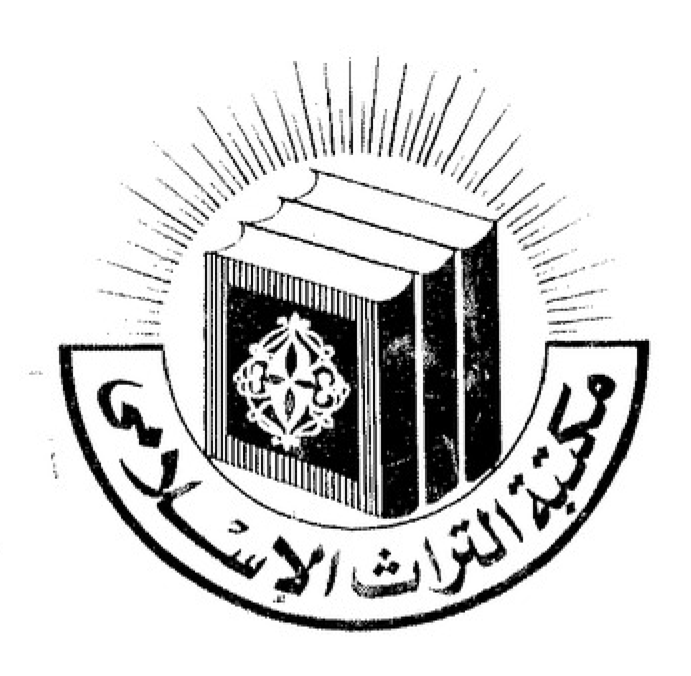
٤ – مائة سؤال وجواب فى الفقة الإسلامى — الجزء الثانى

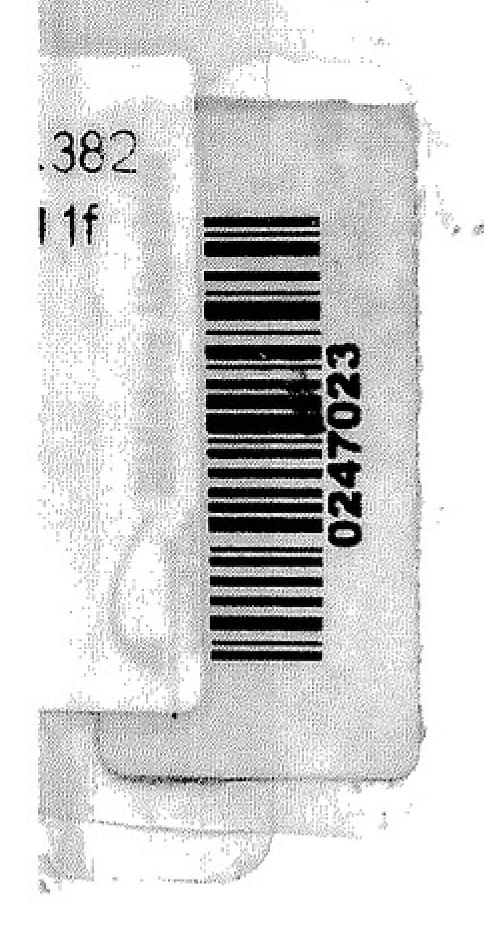
٥ – عقيدة المسلم فى ضوء الكتاب والسنة

٦ – مريم والمسيح

مطبعة التقدم
٤٤ شارع المواردى بالمنيرة - القاهرة
تليفون ٨٤١٤٢١

رقم الإيداع ٣٤٥٧/٨٣





١٠٠ قرشا